

بعداد عاصمة الادب الباسي*

بلم فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

ترجم

اصح من النافل ان تتبسط في البرهان على تأثير البيئة في الادب، ودلائل هذا التأثير ظاهرة واضحة في الفنون الاديبة جميعها ، بل في ما وراء ذلك من مفردات وتعابير لغوية . حتى اجمع دور البحث على ان البيئة تكيف الفرد بل الشعب ، وتم بستها الخاصة كل ما يولده هذا الشعب من آثار متنوعة المظهر والغاية ، فلخصوا ذلك بالقول المأثور : « الانسان ابن بيئته ا »

وما كان الشعب العربي ليثذ عن هذا التاموس ، وما كان الادب العربي ليقى يعزل عن هذا التأثير . ونحن لا نفهم الشعر الجاهلي حتى نفهم ، بل لا ندرك معاني التعابير العربية نفسها ، الا اذا عرفنا حياة العرب في تلك الصحراء القاحلة ، الحارة ، القليلة المطار ، فنفقه اذ ذاك لماذا يدعو العرب بالبشر فيقولون : اسخن الله عينك ا ويدعون بالخير فيقولون : سقاك الله ! رعاك الله ! واقر الله عينك ا ثم يمدقون الرحمت على قبور موتاهم فيستنون الرطوبة اثرها ويكفون عليها « الفرايدي الرانجات » ا وهم ، لو عاشوا في بلاد غزيرة المياه ، شديدة البرد ، لعكسوا تعابيرهم دون شك ، فتمنوا الجفاف لقبور موتاهم ، والدفن والحراة لاجبيهم !^١

هذا مثال ضئيل على تأثيرات البيئة الجغرافية المادية . فكيف بها ، لو

(*) مادة المحاضرتين الاولييتين من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « الفلسفة والآداب السايبة » .

(١) راجع في ذلك ما كتبناه في « المشرق » (٣٠) [١٩٣٢] : ٢٠٥-٢٠٦

اقترنت بتلك البيئة عوامل خلقية شتى ، ومظاهر ثقافية متعددة ؛ كما كانت الحال في بغداد العباسيين ، في القرنين الاول والثاني لتأسيسها ؟
هو مجال رحب سنحاول جوسه شيئاً شيئاً مستدين بالاكثر الى ما تركه لنا القداما . من معلومات واحاديث واساطير ايضاً ، اذ ان للاساطير قيمتها ، لا في معرفة تاريخية الامر الدائرة حوله ، بل في الدلالة على عقلية واضميا وناقليها .
فندرس اولاً تأسيس بغداد وازدهارها ، ثم تازج العناصر البشرية فيها ، وما كان لها من اثر في تكوين ذلك الادب العباسي . وزيد بالادب العباسي مجمل الموئدات العقلية المطبوعة بطابع تلك الثقافة الخاصة بالقرنين الاولين من حكم العباسيين ، قبل ان تتشعب السلطة ، فتتعدّد عواصم المدينة والادب .

١ تأسيس بغداد وازدهارها

اسم بغداد

لمؤلفي العرب آراء عديدة وتحريجات متنوعة في شرح هذه اللفظة ، شأنهم تجاه كل لفظ غريبة عن لغتهم . وقد جمع ياقوت^(١) اكثر هذه الآراء . واشهرها ما نُقل عن بعض الاعاجم من ان معنى بغداد : بستان رجل اسمه داد ، من الفارسية باغ او بىغ = بستان ، وداد او داذا = اسم الرجل .
وقال غيرهم : بل بىغ = اسم صنم ، وداد = عطية . وأصل ذلك ان كسرى كان قد اقتطع احد خصيانه هذا المحل فقال : بىغ دادى ، بى : الضم اعطاني .

وقد نقل ابن الجوزي^(٢) قول عبد الله بن المبارك في بغداد : « ان بىغ شيطان ،

(١) ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ، ليبيك ١٨٦٦ ، ١ : ٦١٧ - ٦١٩

(٢) ابن الجوزي : مناقب بغداد (طبعة الاثري) ، بغداد ١٣٤٢ (١٩٢٣) ، ص ٦

وداذا عطيته ، فانها يشرك » . . .

واراد حمزة بن الحسن ان يشرح ، لا اصل اسم « بغداد » فحسب بل اصل معنى « دار السلام » ايضاً فقال ، في ما نقل ياقوت : « بغداد اسم فارسي معرب عن باغ داذويه ، لان بعض رُقمَة مدينة المنصور كان باغاً (= بستاناً) لرجل من الفرس اسمه داذويه . وبعضها اثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطها فاعتل . فقالوا : ما الذي يأمر الملك ان تُسمى به هذه المدينة ؟ فقال : « هليدوه وروز » اي : خلّوها بسلام . فحكى ذلك للمنصور فقال : سئيتها « مدينة السلام » . (كذا)

ولهم كذلك اختلاف في لفظها . فهي بغداد ، وبغداد ، وبغدان ، ومفداد ، ومفداد ، ومفدان^{١١} .

وزاهم في تعليقاتهم هذه لا يتجاوزون اللغة الفارسية .

على اننا نجد ذكراً قديماً لبغداد في الآثار المسماة حيث ورد اسمها بصيغة بَغْدَدُو او بَكْغَدَدُو على حدّ يرقى الى عهد الملك البابي مردخ بلستان الاول (١١٩٤-١١٨٢ ق. م)^{١٢} . ولكن ستريك^{١٣} يضيف هذا الرأي ، ويرى ان الفرضية لا تظهر قابلة لاحتمال نتيجة ان قراءة لفظة بَكْغَدَدُو غير ثابتة ، وانه ليس من الممكن ان تُرقى باسم ايراني الاصل الى زمن. بعيد في البدّم هذا البعد . اما قراءة لفظة بَكْغَدَدُو فعليها كثير من العلماء ، وقد اوردوا مؤخراً اصحاب

(١) اطلب في اسماء بغداد وشرحها . المصنف البغدادي في : G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdad d'Al-Khwarizmi*, Paris, 1904, p. 23-24

وسلمون يشير في احدى حواشي الصفحة ٢٤ الى رأي اوطيخوس (Eutychius, *Annales* (éd. Pocock, II, p. 399) القائل ان بغداد اسم داهب كان يسكن الدير القائم مكان مدينة المنصور حين قصد الخليفة بناءها . وهو غريب .

واطلب ايضاً في اسماء بغداد مناحقات دي غريب في المجلة الآسيوية 3, *J. As. série X*, 1904, p. 159

(٢) اطلب في ذلك : Scheil, *Mém. Délég. en Perse*, VI, 1905, p. 51 ss.

(٣) Streck, *Baghdād* [*Frequenz. de l'Islam*, I, 575]

«الدليل الازرق» ايرادهم لاسر ثابت^(١). واما كون اصل لفظة بغداد ايرانياً— وستريك يؤكد ذلك تأكيد قداماً. مؤلفي العرب ويشرحه بمعنى «عطية الله»^(٢)— فهو ما نشك فيه، وقد عرفنا قديم اللفظة، وقدم المدينة نفسها بشهادة ما وجد فيها بعض العلماء من آثار الرصيف الآبيري الراقي الى عهد بختنصر الثاني (٦٠٤—٥٦١). فان راولنسون في السنة ١٨٤٨، وأوبرت في السنة ١٨٥٣، وبونيون وهاربر في السنة ١٨٨٩ وجدوا في بغداد، على رصيف الشاطي القريني من دجلة، قطعاً من الآبيري محفوراً فيها اسم بختنصر الثاني^(٣). ولا يزال ظاهراً قسم من هذا الرصيف الكلداني حتى ايامنا هذه، على قول ستريك، واصحاب «الدليل الازرق»، وماسينيون الذي ذكر موقع تلك الآثار في محلة خنصر الياس في الكرخ^(٤).

افلا يكون اسم بغداد سابقاً للعهد الفارسي؟ وهل من غرابة في ان يكون آرامي الاصل، وهو اسم محلة في بقعة تزعمها الآراميون منذ القدم بشهادة اسما عدة اماكن في جوار بغداد كالكرخ والشاسية وغيرهما؟ أو تكون على خطأ اذا قلنا ان لفظة «بغداد» اصلها بيت گداد حملت الآرامية ومعناها «بيت القطيع» او «الحظيرة»^(٥)، فاكثفي بالباء من «بيت»^(٦)

(١) اطلب «Les Girée liens: Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie. [sous la direction de Marcel Monmarché] Hachette, Paris, 1932, p. 480

(٢) G. Le Strange, *Baghdad* — وراجع ايضاً Streck, *loc. cit.*, p. 574-575 during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1900, p. 11

(٣) يشير ستريك ان كل هذا ذا كراً مصادر منها :

H. Rawlinson, *Baghdad* [Encyclop. Britannica, II, 234. a].

J. Oppert, *Expedit. scientif.*, I, 92

L. Massignon, *Mission en Mésopotamie 1907-1908*, t. II. *Epigraphie et topographie historique* [Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire, XXXI], 1912, p. 91, note 3

(٥) كما يشعلها ابن جلول (طبعة Rubens Duval) عمود ٤٤٩

(٦) وهي ظاهرة للنوبة سروقة راسية الانتشار، ولاسيما في لبنان في القرى الآرامية

واصبحت اللفظة بگداد او بنداد . ثم قُوسَت بتثقيط الذال الاخيرة فعدت
بغداد ، واخذ اللغويون من ثم في شرحها عن طريق الفارسية .
واذا قد يكون من الممكن ، بدل ان نشك في قدم ذكر بنداد بحجة
اسمها الايراني ، ان نشك في ايرانية هذا الاسم بدليل قدمه . . .

قدم بنداد

وهما يكن من امر فلا شك في قدم محلة بنداد ، وفي وجودها قبل ان
يفكر المنصور ببناء مدينته ، بل قبل ان يصل المسلمون الى ارض العراق .
وقد ذكر ستريك ان التلود يشير اليها مرتين على كونها سابقة لهذا العصر^١ .
وذكر مؤرخو العرب انها كانت سوقاً جامعة يقصدها تجار العراق وفارس وسائر
البلاد المجاورة ، بل تجار الصين انفسهم ، على قول ياقوت^٢ ، وهي هذه السوق
التي اثار عليها المثنى بن حارثة الشيباني ، القائد المسلم ، ابان عقدها ، ففيها ، في
اول الفتح الاسلامية السنة ١٣ للهجرة (٦٣٤ م) كما يروي ابن الجوزي وياقوت
عن تقدمها من المؤرخين . وخلاصة الخبر ان اهل الحيرة اخبروا المثنى عن هذه
السوق وما يجتمع فيها من الاموال ، فثار بعسكره حتى اتى الانبار فكلم
سُفروخ مرزبانها وأمنه على شرط ان يئده في مشروعه ، قائلاً : « اريد ان اغير
على سوق بنداد واريد ان تبث معي ادلاء فيدلوني الطريق ، وتعد لي الجسر
لاعبر عليه الفرات . ففعل المرزبان ذلك . وقد كان قطع الجسر قبل ذلك
لئلا تعبر العرب عليه . فمير المثنى مع اصحابه ، وبث معه المرزبان الادلاء ،
فثار حتى وافي السوق ضحوة فهرب الناس وتركوا اموالهم — ويقول ابن

الاساء ، كما نرى في بتدين = بيت الدين ، وبكيفا = بيت كيفا (اي بيت الصخرة) ومثلها
كثير .

1) Streck, loc. cit., p. 575

٢) ياقوت : الكتاب المذكور ١ : ٦٧٨ - ولم يترك ياقوت هذه القرصة تذهب
سدى ، فاستخرج اسم بنداد من اسم ملك الصين ، قال : « وكان اسم ملك الصين بن فكانوا
(تجار الصين) اذا اصرفوا الى بلادهم (بارباجهم الطائفة من تلك السوق) قالوا : « بن داد »
اي ان هذا الريح الذي ربتاه من عطية الملك . »

الجوزي : بل ان المثنى « وضع فيهم السيف »^(١) — فاخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الامتعة ما قدرروا على حمله . ثم رجعوا الى الانبار وروانى ممسكوه غنائماً موفوراً . »^(٢)

وحول تلك السور ، على الضفة اليسرى ، كان كثير من القرى والمزارع الآرامية دخل بعضها في تكوين حي الكرخ وما اليه في جنوبي الجانب الغربي من بغداد الكبرى . وقد ذكر من تلك القرى بياوري او بتاوري ، وسال ، وشوانية ، وسونابة ، ووردانية ، وورثال او ورثالة ، ويراتا ، واشهرها مدينة الكرخ . واسمها آرامي الاصل معناه « المدينة المحصنة » . وهي قديمة ينسب بعض المؤرخين بناءها الى سايور الثاني (٣١١-٣٨٠) . وليس غريباً ان تكون الكرخ المدينة المهمة المسورة قبل الاسلام ، وان يكون كل ما تقدم ذكره من المحال ، حتى بغداد ، من مزارعها وبساتينها .

وفي النصف الاعلى من مدينة المنصور ، في الربع المسمى الحريرية ، كان قبل العهد العباسي مدينتان معروفتان هما الخطابية والشرفانية .

وكل هذه الاماكن كانت مشهورة ببساتينها ورياضها على عهد الساسانيين ، بفضل ما كان يجتذرها من الانهر والاقنية المتفرع اكثرها عن الفرات حتى يصب في دجلة (اطلب الرسم ٢) ، كما يظهر لمن يلقي نظرة اجمالية على ما تصوره لوسترانج من نظام شبكة الري في تلك الناحية ، في عدة خرائط^(٣) قد يتناولها نقد ماسينيون في ما خص انهر الكرخ^(٤) ، ولكنها تلخص على اسهل طريقة معاومات مؤرخي العرب في هذا الشأن ، تلك المعلومات التي استفاد منها سالمون فكتب فصلاً وافياً في « سواد العراق ونظام الري في بابل »^(٥) .

(١) ابن الجوزي : الكتاب المذكور ، ص ٧

(٢) ياقوت : ك. م. ١ : ١٧١

(٣) G. I.e Strange, *op. cit.*, Map. III, IV, V, VI...

(٤) L. Massignon, *op. cit.*, p. 118-119

(٥) G. Salmon, *op. cit.*, p. 32-42

وقد كان يتزلها ملوك الساسانيين احياناً ، وهي على مسيرة يوم من عاصمتهم المدائن (نحو ٣٠ كيلومتراً) ، فيقيمون في قصر بنوه على مقربة من مصب نهر عيسى . وهو القصر الذي تحول اسمه في ما بعد الى « قصر عيسى » .
 فيتضح مما تقدم ان المنصور لم يبن مدينته في مكان مقفر من السكان . اما هؤلاء السكان فكانوا في اكثرهم من العنصر الآرامي الغالب على تلك الانحاء ، بدليل اساء الاماكن الآرامية الاصل والصفة احياناً ، وبدليل ما نعرفه من كثرة الديورة النصرانية الزاهرة على عهد الساسانيين . ولا يخفى ان قصر الخلد الذي بناه المنصور على الضفة اليمنى ، بعد بناء مدينته ، كما سئى ، قام محل دير قديم . وانه كان في جوار مصب الصراة في دجلة دير آخر^(١) ترك اسمه لذلك الحي باجمعه فكان الناس يدعون له حتى بعد العهد العباسي «الدير العتيق» . ويذكر ياقوت ايضاً بيمة كانت في موضع مدينة المنصور^(٢) .
 بيد ان كل ما تقدم ذكره من القرى والمزارع كان ابعد من ان يمثل الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والادبي الذي مثلته بغداد . وعليه يمكننا ان نقول ان المنصور انشأ حقاً مدينة بغداد .

لماذا اختار المنصور هذا الموقع ؟

كانت دمشق ، عاصمة الدولة البائدة ، لا تزال مغلظة امينة خلفائها الامويين . وهي ، فضلاً عن ذلك ، اصبحت كثيرة الانحراف نحو الغرب بالنسبة الى مملكة كان اكثر اتساعها الى الشرق من البحر المتوسط حتى نهر الاندوس . فكان من الضروري ان تحول الدولة الجديدة مركز حكمها من الشام . ولم يكن من المقبول ان تعود به الى الحجاز ، وقد فقد اهمية السياسة منذ عصر الراشدين ، فضلاً عن انحرافه عن متوسط العالم الاسلامي . واذا ذكرنا ما قام به الفرس ، ولاسيما الحراسانيون ، من الجهود والتضحيات في نصرة بني العباس ، قدرونا ان العاصمة الجديدة ستجده نحو بلاد فارس ، فتكون الدولة

(١) ياقوت: ك.١٠٠: ٦٨١

(٢) ياقوت: ك.١٠٠: ٦٨٠

الحديثة قريبة من انصارها ، ويكون مقاما متوسطاً بين الفرس والعرب ، وهما العنصران المهان في الجامعة الاسلامية اذ ذلك .

فكر السقاح بهذا الامر ، فجعل مركزه او لا على شاطئ الفرات . ولم يتم في البصرة لانحرافها عن المتوسط الجغرافي المقصود . وتجنب الكوفة ، عاصمة علي ، لتعلق اهلهما بالعلويين تعلقاً شديداً كان يحشى منه العباسيون . فبنى الهاشمية ، موسماً قصراً كان لابن هيرة . ثم اختطّ تجاهه مدينة جديدة ساءها الهاشمية ايضاً ، واتمها المنصور بعده ^(١) .

اما المنصور فاقام في الهاشمية مدة ، ثم شرع باذى من جيرانه اهل الكوفة الذين كانوا « يُفسدون جيشه » ، على قول المؤرخين . ولا ننس ان العباسيين انما نالوا الخلافة بفضل الفرس العلويين الذين لم يشدوا على بني امية الا لارجاع هذا الحق الى اصحابهم من ابناء علي ، لا لاعطائه بني العباس . فكان ان هولاء ، عندما تخلّصوا من الامويين ، اضطروا الحكم وعملوا على التخلص من احزاب العلويين . فقتل المنصور ابا مسلم الخراساني ، « صاحب الدعوة » ، من كان اعظم مؤسس للخلافة العباسية على غير قصد منه ، ثم تخلّص كذلك من ابراهيم الثائر في البصرة . فاضحى بتجنب جوار العلويين فابتهمد عن الكوفة والبحرة ؛ وخشي ان يكون عرشه لرحف قد يقوم به الفرس فجعل دجلة بينه وبينهم ، واختار موقع بغداد على الضفة اليمنى .

وهنا يتبسط موزن العرّب في اسباب هذا الاختيار . وكلها تعود ، في نظرهم ، الى جودة المناخ ، وخصب الموقع ، وحسن مركزه الاقتصادي والتجاري والسياسي .

اما جودة المناخ فنتيئة . لان بغداد لا تعلق عن سطح البحر الا ٣٧ متراً ، وهي في منطقة حارة ^(٢) ، تكتنفها المياه البطيئة السير ولا يندر ان تواف ،

(١) باقوت : ك . م . ١٤٦ : ٤

(٢) بندر جداً ان يسقط الثلج في بغداد . فاذا سقط اهتم به الناس وارتخه المؤرخون . من ذلك ما ذكر ابن العربي في تاريخ السنة ٣٩٦ للهجرة (٩٠٨ م) قال : « سقط بينداد ثلج كبير من بكرة الى العصر ، فصار على الارض اربع اصابع . وكان منه برد شديد ، وجد

بسبب فيضان دجلة ، مستنقعات يتوآد فيها كثير من البعوض والذباب^{١١} . ولعلها كانت ، قبل ان تكثر فيها السكان ، اقل فضلات ، وانقى هواً .
 واما خصب البقعة فمشهور بفضل وقوعها بين دجلة والفرات في نقطة اقترابهما احدهما من الآخر ، وبفضل ما كان يجتريها من الاقنية او الانهر السائرة بين النهرين الكبيرين ، القافة بري تلك البقعة بجمالها ، كما قدمنا .
 واما حـن المركز الاقتصادي والتجاري والسياسي فنتاج عن موافقة الموضع في بقعة متوسطة بين مراكز المدن الثاهرة منذ القدم من البابليين الى الاشوريين الى الفرس الاول الى السلوقيين الى الساسانيين الى البيزنطيين ، حتى كانت تلك البقعة نقطة اتصال بين الامم المختلفة فازدهرت فيها بابل ، ثم سلوقية ، ثم المدائن ، واخيراً بغداد في العصر الذي يهتنا امره .
 اتبه مؤرخو العرب وجغرافيوهم لهذه الاسباب فذكروها في القول على تأسيس بغداد . انما اضافوا اليها شيئاً من الحكايات والاساطير يدعـب تحقيها . فخطروا المحتمل بالمستنع والمقول بالمستحيل . وقد يكون من المفيد ان نذكر مثلاً على كل من هذين النوعين .

من النوع الاول ما ذكره كل المؤرخين ، على شيء من الاختلاف في الرواية ، قالوا : « ان المنصر استشار دهقان بغداد في موضع البناء فقال الدهقان : « الذي اراه ، يا امير المؤمنين ، ان تنزل في نفس بغداد . فانك تصير بين اربعة طاسيج^{١٢} : طسوجان في الجانب الغربي ، وطسوجان في الجانب الشرقي فاللذان في الغربي قَطْرَبُل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكاواذي . فان تأخر عارة طسوج منها كان الآخر عامراً . وانت ، يا امير المؤمنين ، على الصراة ،

الماء والمثلّ والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر . » (تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ٢٦٦) . والبرد يشد ، شتاءً ، في أكثر الشجر . حتى يلتزموا ان يضرمو النار للاستدفاء . » (البستاني : دائرة المعارف ٥ : ٥٠٥) .

(١) وقد اشار جل من ذموا بغداده شراً ونهراً ، الى كثرة ما فيها من المسابيل والمزابل والهوام . اطلب شيئاً من ذلك في باقوت : ك . م . ١ : ٦٩٠-٦٩٦ .

(٢) ج . طسوج : الناحية ، الغربية .

ودجلة تجيئك بالميرة من القرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان . وتحمّل اليك طرايف الهند والسند والصين والبحرة وواسط في دجلة ، وتجيئك ميرة ارمينية واذريجان وما يتصل بها في تاسراً ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك . الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل اليك عدوك وانت قريب من البر والبحر والجبل . ودجلة والفرات والصرافة خنادق مدينتك . «^١ فاقنع المنصور .

ومن النوع الثاني ما تناقله المؤرخون ايضاً مما يمكننا تسميته بأسطورة «مقلاص» ، وقد اشار اليها ابن الجوزي والخطيب البغدادي بشيء من الاختصار ، ووردت مفصلة في الفخري ومعجم البلدان ، وهي عن علي بن يقطين ، قال :
 « كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الى الصرافة يلتس موضعاً لبناء مدينة . (قال) فنزل الدير الذي على الصرافة في العتيقة . فما زال على دابته ذاهباً جانياً منفرداً عن الناس يفكر . (قال) وكان في الدير راهب عالم فقال لي : كم يذهب الملك ويحيي . ! قلت : انه يريد ان يبني مدينة . قال : فما سه ؟ قلت : عبد الله بن محمد . قال : ابو من ؟ قلت : ابو جعفر . قال : هل يلقب بشيء . ؟ قلت : المنصور . قال : ليس هذا الذي بينها . قلت : ولم ؟ قال : لانا قد وجدنا في كتاب عندنا تتوارثه قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا المكان رجل يُقال له « مقلاص » . (قال) فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال لي : ما وراءك ؟ قلت : خير القية الى امير المؤمنين وأرنيه من هذا العناء . فقال : قل . قلت : امير المؤمنين يعلم ان هو لا مهم علم . وقد اخبرني راهب هذا الدير بكذا وكذا . فلما ذكرت له « مقلاص » ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد واخذ سوطه واقبل يذرع به . فقلت في نفسي : لحقه اللجاج . ثم دعا المهندسين من وقته ، وامرهم بخطط لرماد . قلت له :

(١) راجع خصراً ياقرت : ك. م. ١ : ٦٨٠-٦٨١ ؛ وابن الجوزي : ك. م. ١ : ٨٠٠ ص ٨ ؛

وابن العبري : ك. م. ١ : ٢١١ ؛ والطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goetze)

ليدن ١٨٨٠ : ٣٠ : ٢٧٥

اظنك ، يا امير المؤمنين ، اردت معاندة الراهب وتكذيبه . فقال : لا والله .
واكني كنت ملقباً بمقلاص . وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري . وذلك
اننا كنا بناحية السراة ، في زمان بني امية ، على الحال التي تعلم ، فكنت انا
ومن كان في مقدار سني من عرمتي واخوتي نتداعى وتعاشر . فبأنت النبوة
التي ، يوماً من الايام ، وما املك درهماً واحداً ، فام ازل افكر واعمل الحيلة الى
ان اصبت غزلاً لداية كانت لهم . فسرقته ثم وجهت به فبيع لي واشترى لي
بشمه ما احتجت اليه . وجهت الى الداية وقلت لها : افلي كذا ، واصنعي
كذا . قالت : من اين لك ما ارى ؟ قلت : اقترضت دراهم من بعض اهلي .
فعلت ما امرتها به . فلما فرغنا من الاكل وجلسنا للحديث طلبت الداية
النزل فلم تجده ، فعلت اني صاحبه . وكان في تلك الناحية لس يقال له
مقلاص مشهور بالسرقة . فجاءت الى باب البيت الذي كنا فيه ، فدعيتني ،
فلم اخرج اليها لعلني انا وقفت على ما صنعت . فلما التت وانا لا اخرج
قالت : اخرج ، يا مقلاص الناس يتحذرون من مقلاصهم ، وانا مقلاصي معي
في البيت افزح معي واخوتي وعموتي بهذا اللقب ساعة ثم لم اسمع به الا منك
الساعة . فعلت ان امر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه .^{١١}
افتكرون هذه الاسطورة من اختراع الرواة ؟ ام تكون صحيحة النسبة الى
الراهب ؟ فيكون هذا ، وقد عرف قصد امير المسلمين في النزول هناك ، وتحقق
اسم واسم ابيه وكنيته ولقبه ، رأى ان يخرع هذه الحكاية فينسب الى
كتاب قديم أن لا يبني المدينة الا رجل اسمه بعميد البعد كله عن اسم الخليفة
المذكور ، لعله بذلك يصرف عن البناء في تلك البقعة ، فيبعد المسلمين عن الدير . . .
فيكون المنصور ، والحالة هذه ، اشد دهاء من الراهب اذ يستفيد من القصة
ويخرع اسطورة اخرى تُسَمَّ اسطورة الراهب ، تأسباً الى نفسه لقب مقلاص . . .
ومها يمكن من امر الاختراع هذا فقد تم بناء المدينة على يد المنصور .

١١ يانوت : ك . م . ١ : ٦٨٢ - ٦٨١ : وابن الطيفي : الفخري (طبعة Derenbourg) ،

فأمر أولاً ان يخطط رسمها بالرساد مع ابوابها وبنائاتها وسورها. وان يكون تصميمها على شكل دائرة تامة «لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض»^(١) وموزخو العرب يفتخرون بهذه الهندسة التدويرية، ويرددون على اثر الخطيب البغدادي: «لا يُعرف في اقطار الدنيا كلها مدينة مدوّرة سواها»^(٢) ولعلهم معذورون لكنهم لم يسموا بغيرها من المدن على هذا التصميم. اما الحقيقة فهي ان «اقطار الدنيا» عرفت كثيراً من المدن المدوّرة، بل ان ذاك القطر نفسه الذي اختاره المتصور عرف تدوير المدن منذ القديم. كما تفيدنا الآثار التاريخية واللغوية، وهي ما سنستند اليه في الجواب عن هذا السؤال:

ابن اهد الصور فكرته في الاستدارة؟

لنا في الجواب طريقان كما قدّمنا: طريق تاريخي، وطريق لغوي. اما التاريخ فيفيدنا عن مدن كثيرة بناها الحثيون والميديون على تصميم مستدير، حتى ان مثال المدينة الحثية المحصنة يظهر على شكل الاسوار المستديرة الواحد بعد الآخر تحيط بالمرکز او النقطة المتوسطة؛ كما افادتنا الحفريات في موقع مدينة زنجولي عند اقدام الامانوس^(٣)، وفي موقع قادش في تل النبي مند في سهل حمص^(٤)، وكذلك في موقع كركيش على الفرات مكان جرابلس. وان الملاحظ المدقق ليجد في تصميم كركيش الشكل المستدير في الاصل ثم الميل به الى التربع^(٥).

واذا انتقلنا الى الميدين، ارباب ميديا او بلاد فارس، نرى شاهداً واضحاً على استدارة المدن في تأسيس عاصمتهم المدعوة اكبتيان، القائمة مكانها اليوم مدينة همدان. فان هيرودوت المؤرخ يذكر ان ديجوسيس ملك الميدين

(١) كذا، في ابن الجبري: ك.م. ص ٢١١.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بندا (طبعة Salmon) ص ١

(٣) اطلب تصميم المدينة في Syria, II, 1921, [Syria, II, 1921, 3^o art.] E. Pottier, *L'art hittite*, 3^o art.

(٤) اطلب في ذلك Syria, III, 1922, p. 8933 pl. III, fig 41

(٥) Pierre Lavedan, *Histoire de l'Architecture urbaine*, Paris, 1926, p. 59

« حتم على ابنا رعيته ان يتركوا منازلهم ، ويبنوا مدينة يقيمون فيها . فبنيت المدينة على اكمة . وكان يحيط بها سبعة اسوار مستديرة لا يعلو واحدا عن الآخر الا بمقدار المشارف المصبوغة بالوان مختلفة : من ابيض ، واسود ، وارجواني ، وازرق ، واحمر ، وفضي ، وذهبي . وجعل الملك قصره وبيت ماله (او كنوزه) داخل السور الاخير . اما البيوت فكانت بين سائر الاسوار . . . »^(١) (انتهى كلام هيرودوت).

قلنا : أو لا يكون احد مهندسي المنصور من الفرس التي يهذه الفكرة من بلاده ؟ ولا سيما اذا انتبهنا لأوجه الشبه البارزة بين المدينتين ومنها ان « دار السلام » كان لها سوران مستديران ، وان الرعية كانت تسكن بين هذين السورين ، وليس ضمن السور الداخلي الا قصر المنصور ، والجامع ، ودوائر الحكم .

ثم هناك الطريق اللغوي ؛ وقد يؤدي بنا الى نتيجة اقرب من هذه . عرفنا ان بين القرى والمزارع والديورة التي كانت قائمة مكان بغداد مدينة قديمة اسمها « الكرخ » ، وقلنا ان لفظة « الكرخ » او « الكرك » تعني المدينة المحصنة باللغات الآرامية^(٢) . على اننا اذا فحشنا عن اصل المعنى في اللفظة ، فاننا نرى ان الكرخ = كَرْخًا = حصل اسم من فعل كَرَّخَ او كَرَّكَ ، صَمْرٌ ومعناه اهدق بالثبي . واحاط به ، واستدار بجوابه . وفي كل مشتقاته معنى الإحاطة ، والطواف ، واللف . وبهذه المعاني جميعها اشتملت اللفظة في الاسفار المقدسة^(٣) . فيكون من ثم معنى الكرخ المدينة المحصنة وبالتالي المستديرة السور .

(١) نقل عن تاريخ هيرودوت (١, 98) لايفدان في كتابه المقدم ذكره : Lavedan,

op. cit., p. 63

(٢) ومن هذا الاصل اسماء بعض القرى اللبنانية والسورية ، المدعوة « بالكرك » .
(٣) ومن معاني هذا المصنف من الكتب ، او المجلد المنفرد ، لان المجلدات كانت في ما مضى ، قبل عهد الطباعة ، تُلفّ لثاً . وشبه هذا الاصل اللغوي معروف في لفظة volume الفرنسية المشتقة من اللاتينية volumen من فعل volvere = لَفَّ . ومن معاني هذا ايضاً

ولنا شاهد آخر على هذا المعنى في اسم احد الانهر المحيطة بتلك البقعة على شكل يقرب من نصف الدائرة، واسمه، حتى في الآثار العربية جميعها، «نهر كرخايا». ولا يخفى ان كرخايا صيغة السريانية معناها «الالتغافي»، او المحيط والمستدير او ما يشبه معنى «التحويطة»
 أفلا يكون المنصور رأى استدارة تلك المدينة، او سمع بها، او سأل عن معنى الكرخ، فأفيد، فافتكر بالمدينة المدورة؟

دار السلام

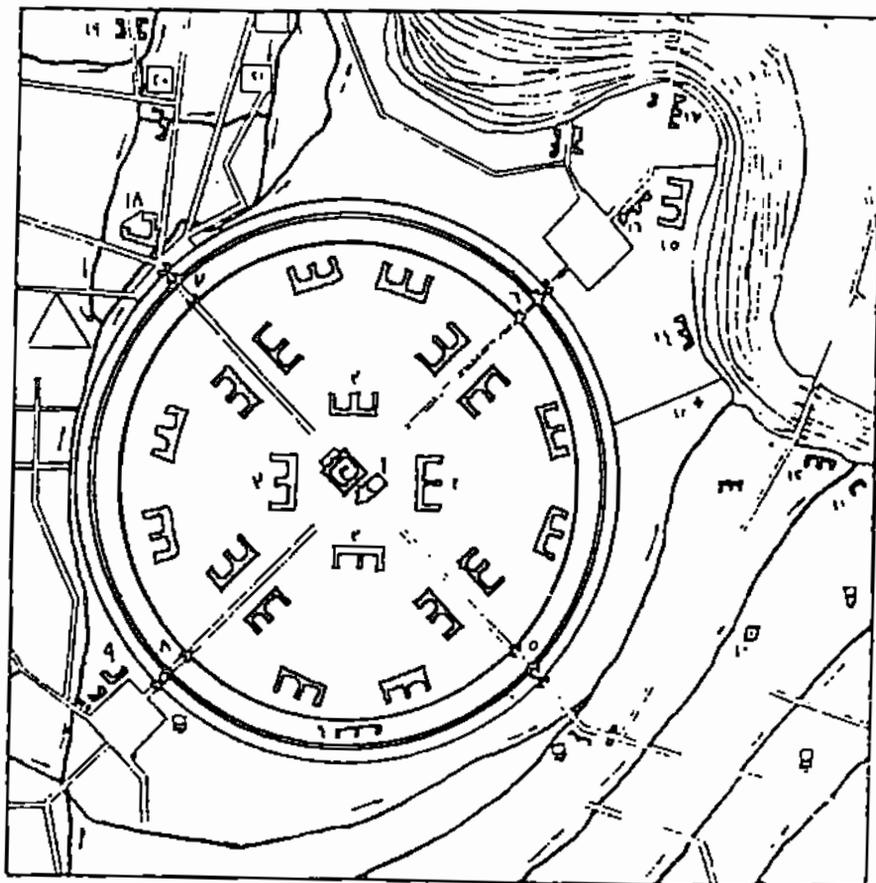
وقد استعان على تحقيق فكرته باشهر مهندسي العصر من فرس وآراميين وعرب، منهم الحجاج بن ارطاة، وابو حنيفة النعمان بن ثابت. واستحضر الصناعات والعملة والتجارين والحذادين والحفارين من الشام والموصل وجبل خراسان والكوفة وواسط، «وكتب الى كل بلد في حمل من فيه من يهيم شيئاً من امر البناء». «حتى بلغوا الالف». فامر بيد. العمل سنة ٧٦٢ م. ووضع اول بيعة بيده قائلاً: «بسم الله، والحمد لله، والارض لله يورثها من يشاء من عباده، والماقية للمتقين». ثم تتابع الشغل فكانوا يضرّبون اللبن ويطبّخون الآجر ثم يبشرون. وقد حفظ لنا ابن الجوزي^{١٢} وغيره شيئاً من المعلومات في هذا الشأن قال: ان ابا حنيفة كان يعدّ اللبن بالقصب... وكانت اللبنة ذراعاً في ذراع، ووزنت لبنة فكانت مائة وسبعة عشر رطلاً.^{١٣}
 على ان هذا العمل لم يبن المنصور عن طلب الانتعاش ومواد البناء. وكانت المدائن، عاصمة الاكاسرة، قريبة منه على مسيرة يوم، وفيها القصر

الزئار، نظراً لانفاه واستدارته. وقد حفظت اللغة العامية في بعض مناطق لبنان المتأثرة باللغة السريانية هذا المعنى في اللفظة «الكرككة» التي يسون بها الإتيق، او آلة التقطير، لا فيها من استدارة الانابيب والتفافها بعضها حول بعض.

(١) الحطّيب البغدادي: الكتاب المذكور، ص ١

(٢) ابن الجوزي: ك. م. ص ٨

(٣) بالطلّ البغدادي، وسنقدّر وزنه عند كلامنا عن اسرار الحاجيات، بيد هذا.

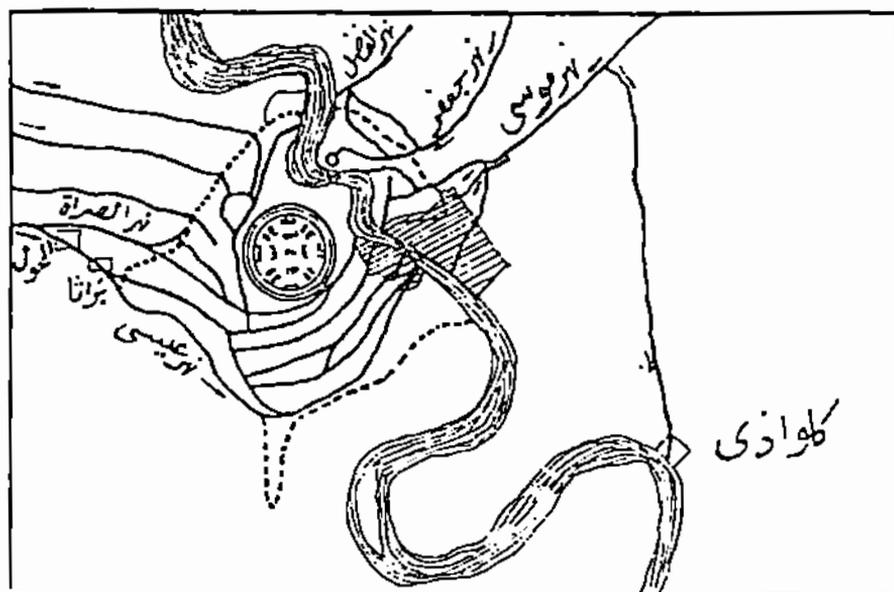


الرسم الاول

المدينة المدورة كما بناها المنصور

عن نسيب وسمه لوسترايخ ، (Le Strange, op cit. map. II.) وقد حورنا فيه شيئا
 طفيفا ، فانحننا قليلا بحيث بين « السورين » . وهذه هي المخلات الهامة :

- | | |
|----------------------------------|---------------------------------|
| ١١ - دار الجوز | ١ - حـمـام الشـور |
| ١٢ - باب الشير | ٢ - قصر الذهب ، او باب الذهب ، |
| ١٣ - الدبر العتيق قرب مصب الصراة | او انفة الخضراء |
| ١٤ - قصر زبيدة | ٣ - مراكز الادارات العامة |
| ١٥ - قصر الخلد | ٤ - السجن المعروف « بالمطيق » |
| ١٦ - اصطبلات الخليفة | ٥ - باب البصرة |
| ١٧ - مركز شرطة الجبر | ٦ - باب خراسان |
| ١٨ - سجن باب الشام | ٧ - باب الشام |
| ١٩ - دكان الابناء | ٨ - باب الكوفة |
| ٢٠ - مربعة الفرس | ٩ - ديوان الصدقة وبعض الاصطبلات |
| ٢١ - مربعة شيب | ١٠ - قبر معروف الكرخي |



الرسم الثاني

مدينة المنصور ومركزها في بغداد الكبرى بمد عهد المهدي

المنصور السواد. مثل الآخر. وأعطى المنقذ حدود المدينة الكبرى. وقد ظهرت في الجانب الشرقي حاصنة بغداد الحالية مشدراً فيها بالمنقذ النخبة المتوازية بأعراف.

(عن وصفراحي في كتابه المذكور : Map I — وأطاب وفد ماسينيون في ما نطقى باتجاه الآخر حاصنة في الصفحة ٨٦ من هذا الجزء من المشرق)

الايض المشهور ، وايوان كسرى . فاستشار خالد بن برمك في نقض تلك
البيانيات ونقل انتقاضها الى بغداد . فقال خالد : لا ارى ذلك . فلم يسمع له المنصور
وقال : أبيت الا الميل الى اصطابك الاعاجم . ثم امر بنقض القصر الايض .
فهدم قسم . ثم . وأخذ بنقل انتقاضه الى موقع بغداد . ولكن سرعان ما انتبه
المنصور ، وهو المالى المدقق المتصد^١ ، لنتيجة هذا الصل ، فرأى ان نفقات
النقض ونقل المواد الى بغداد تزيد على نفقات عمل اللبن ، فترك النقض .

وامر ان يجعل عرض السور الخارجى من اسفله خمسين ذراعاً ومن اعلاه
عشرين ذراعاً . فكان في كل ساف مائة الف لبنة واثنتان وستون الف لبنة ،
على ما نقل عن رياح البناء ، وكان ممن يتولى البناء . هذا في اسفل السور .
ولما وصلوا الى الثلث لطفوا الساحة فصيروا الساف مائة الف لبنة وخمسين الف
لبنة . فلما جاوزهوا الثلث لطفوا الساحة ايضاً ، فجعلوا في الساف مائة واربعين
الفاً^٢ . ثم بنى سوراً ثانياً داخلياً . واحاط المدينة بخندق . وجعل لها اربعة
ابواب : باب خراسان الى الشرق الشمالى ، وباب الكوفة ناحية الحجاز ، وباب
الشام ناحية المغرب ، وباب البصرة ناحية الاهواز وواسط واليامة والبحرين
(اطلب التصميم في الرسم ١) . ولم يضع عليها ابواباً من عمل صنّاعه ، انما نقل
ابوابها من الخارج ، فوضع على باب خراسان باباً جدي . به من الشام « من عمل
الفرغنة »^٣ ، وعلى باب البصرة باباً جدي . به من واسط وكان الحجاج قد اخذه
من مدينة اسمها زَنْدَوْرَد « يزعمون انها من بناء سليمان بن داود »^٤ ، واقام
على باب الكوفة باباً جاء به من الكوفة من عمل خالد القسري ، وعمل هو

١ في كتب المؤرخين كثير من الحوادث تدلّ على اقتصاد المنصور بل على بخله ، وعلى
تنبيهه لطرف جمع المال . منها ما ذكره ابن العبري مما يملح ان يكون مثلاً لموزعي الضرائب
قال : « امر المنصور ببناء دور اهل الكوفة ، وقسم خمسة دراهم على كل دار . فلما عرف
عدمهم جياهم اربعين درهماً اربعين درهماً » (ابن العبري : ك . م . ٢١٢) .

٢ ابن الجوزي : ك . م . ١٠٠٩ .

٣ ياقوت : ك . م . ١٠٤٤ .

٤ ياقوت : ك . م . ١٠٤٤ ؛ وابن الجوزي : ك . م . ١٠٠ ؛ والمطيب : ك . م . ص ١٢

باباً لباب الشام ، « وهو اضفها »^١ وكلها من الحديد كل باب منها فردان^٢ .
وجعل على الابواب القباب والابراج ، وفيها الخراس . وكان على رأس كل قبة منهل
تمثال تدبره الريح .^٣

اما مساحة هذه المدينة فيمكننا معرفتها بما يُذكر من انه كان بين الباب
والآخر مسافة ميل^٤ . والميل يعادل ١,٠٠٠ ذراع سودا . او مأمرنية ، وهذه
تقرب من نصف متر . فتكون المدينة صغيرة بالنسبة الى ما ستصير اليه بغداد
الكبرى بعد المنصور ، كما سنرى .

وربى المنصور داخل السور الثاني ، وسط المدينة ، جامعاً ، والى جنبه دار
الخلافة ، المعروفة « بقصر الذهب » ، او « بالقبلة الخضراء » ، لانه بنى فون
الايوان قبة عالية ذات لون اخضر بلغ علوها ثمانين ذراعاً ، وعلى رأسها صنم
على صورة فارس في يده رمح^٥ .

هذا ما يتفق المؤرخون على ذكره دون ان يشك احدٌ منهم في صحته .
واذا احتجوا فانما يحتجون على الحرافة العالقة بذلك الصنم ، لا على وجود الصنم
نفسه . اما كيف امكن خليفة المسلمين ، وهم المشهورون بالامتناع عن تمثيل
الكائنات الحية بالرسم والتصوير فضلاً عن النحت والتجسيم ، ان يُقرّ هذا المثل
ويسمح بوضع تمثال على قبة قصره ، فهو ما يجار فيه المطالع لاول وهامة . على ان
الامر لا يظهر مستحيلاً ، اذا ما عرفنا ان بغض الاسلام النبي لمظاهر تصوير
الكائنات الحية ، واهتمام الائمة بتحريم هذا التصوير لم يتقدما العصر العباسي .
بل ان ذلك المجرى التحريمي قد يكون من نتائج تأثير العقائد التلمودية في
الحديث الاسلامي ، ولم يسبق هذا التأثير العصر الذي يهتنا امره^٦ . فضلاً عن

(١) الخطيب : ك . م . ص ١٤ ؛ ياقوت ك . م . ص ١٠٤ : ٦٨٤

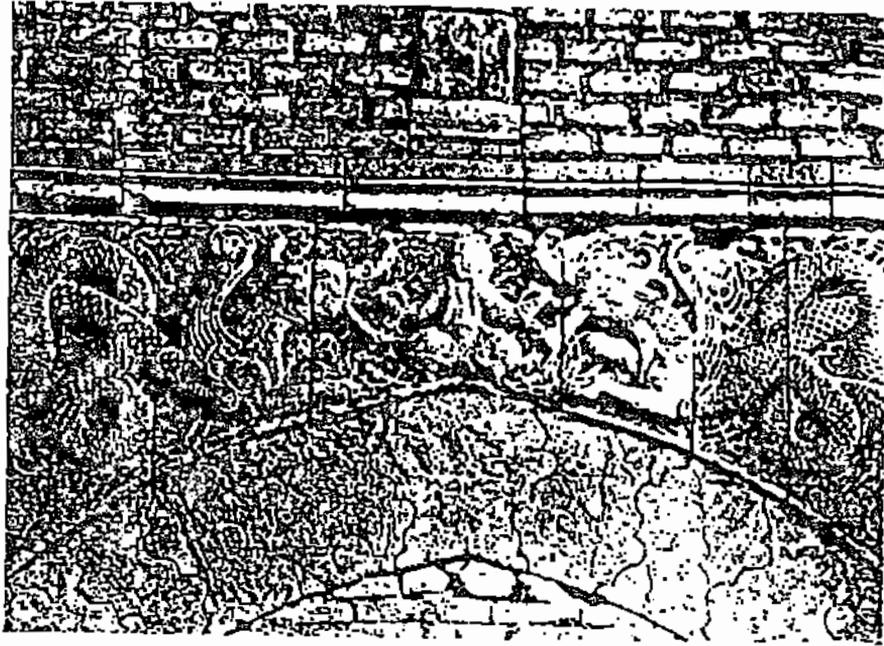
(٢) الخطيب : ك . م . ص ١٢

(٣) ابن الجوزي : ك . م . ص ٩ ؛ والخطيب ك . م . ص ٨

(٤) الخطيب : ك . م . ص ١١ ؛ ابن الجوزي : ك . م . ص ١١ ؛ ياقوت : ك . م . ص ٦٨٣

(٥) اطلب في ذلك الملاحظات الدقيقة التي اوردتها حضرة الاب لانس في بحثه النفيس :

P. H. Lamineas, *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés, dans
Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930, p. 351-359*



الرسم ٣ : باب الطلم في بغداد

أُقي في السنة ٢٦١٨ هـ (١٢٣١) على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠-١٢٣٥) والرسم يمثل رجلاً جالساً القرفصاء بين تشيئين مجنحين مذئبين ، وقد فغرا نبيها واخرها لسانيها ، فقبض عليها الرجل . ولا يخفى الشبه بين هذا الشخص والمعروف من شائيل يرذأ بما يدل على شدة التشهير الموهولي في عهد الأتراك . ويرى بعض العلماء ان الشخص المذكور يمثل الخليفة الناصر نفسه . ولا يران الباب قائماً في بغداد إلا ان مدخله سُدَّ منذ مرور السلطان مراد الرابع (١٦٣٨) وقد احداث ارسام عن *Strzygowski. Aeneas bildende Kunst*, Augsburg, 1930. fig. 282



الرسم ٤ : رسم تشيئين على احد ابواب حمص

(من صورة حفرة الاب ربه موترد اليسوعي لم يسبق نشرها)

ان هناك حتى في العصر العباسي ، بل في ما بعد العصر العباسي ، مظاهر عدة لتمثيل الاشخاص والحيوانات ، منها في بغداد نفسها ، ما مُثِل على رؤوس قُب الأيواب في «دار السلام» ، كما تقدّم في الصفحة السابقة ؛ وما مُثِل حول «بركة الشجرة» في دار المقدر كما سترى^(١) . وخصوصاً ما مُثِل في اعلى الباب المعروف «باب الطلم» المبني سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠-١٢٢٥) كما يظهر من الكتابة الظاهرة فوق الاتر^(٢) . وقد نشرنا صورة هذا الاتر ، عن ستريزيفوسكي^(٣) ، «لاهيته في تاريخ الفن الاسلامي» ، وذلك انه يمثّل ، في رأي علماء الآثار ، الخليفة الناصر نفسه ، وعلى رأسه تاج عاظمٌ بيالة ، وهو جالس القرفصاء بين تينين مجتحيين مذئبين ، وقد قرأ فيها واخرجا لسانيها قبض عليها الخليفة^(٤) .

واذاً فان يكن من شك في صحة رواية الصنم ، فلا يكون هذا الشك مستنداً الى المبادئ الدينية .

اما الحرافة التي حاكها مخيلة العامة حول هذا الصنم ، وتجاوزت الى المرزخين ، فخلاصتها ان الخليفة كان ، اذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها ، علم ان احد الخوارج يظهر من تلك الجهة . فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الاخبار بان خارجياً قد نجم من تلك الجهة^(٥) . وقد

(١) اطلب الصفحة ٦٨ من هذا البحث .

(٢) اطلبها مع ترجمتها الى الفرنسية في 47-48 p. Missignon, *op. cit.*, p. 47-48

(٣) Strzygowski, *Aliens bildende Kunst*, Augsburg, 1930, fig. 282

(٤) اطلب وصفاً مختصراً لهذا الاتر في 645 p. Strzygowski, *op. cit.*, p. 645 ووصفاً مطوّلاً في 31, p. 83 Van Berchem, *Amida*, Heidelberg, 1910, p. 82 ss. et fig 31, p. 83 وايضاً في 173 ss. 1906 p. 277 ss., 541 ss. ; Hartmann et Sarre, *OLZ*, 1905, p. 277 ss. وهذا وان تمثّل التينين المتقابلين معروف على كثير من الابواب المشهورة المبنية في القرن الثالث عشر ، من ذلك واجهة «باب حلب» في ديار بكر ، وباب قلعة حلب ، وباب جامع «چته مناره» في ارضروم . (اطلب 84 p. 83 et Van Berchem, *op. cit.*, p. 83 و 292 p. Strzygowski, *op. cit.*) . ومن ذلك ما وجدته حضرة الاب رينه موترد على احد ابواب حمص فنفضّل طينا بصورته ، فنشرناها ، لأول مرة ، تحت صورة «باب الطلم» .

(٥) ابن الجوزي : ك. م. ١١-١٢ : الخطيب : ك. م. ١١ .

نقل يا قوت هذه الحرافة وقتدها بقوله :

« هو من السجيل والكذب الفاحش . وانما يُحكى بجل هذا عن سحرة مصر وطلسات بليناس التي اوهم الاغمار صحتها تطاولُ الازمان والتخيلُ ان المتقدمين ما كانوا بني آدم . فاما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الحرافات . فان من المعلوم ان الحيوانات الناطق مكلف الصنائع لهذا المثال لا يعلم شيئاً مما يُنسب الى هذا الجداد ولو كان نبياً مُرسلاً . وايضاً لو كان كلما توجهت الى جهة خرج منها خارجي لوجب ان لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لانها لا بد ان تتوجه الى وجه من الوجوه . والله اعلم . »^{١١}

ويتفق من سبق ذكرهم من المؤرخين على القول ان تلك القبة الخضراء سقطت «يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الاخرى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة» اي في ٩ اذار ٩٤١ بعد ان مرّ على بنائها نحو مائة وثمانين سنة .

ولم يكبد المنصور بتهي بناء المدينة في السنة ٧٦٦ حتى نقل اليها دوائره المتعددة فاقام اربابها في البنايات الداخلية ، اي ضمن السور الداخلي . وجعل الرعية بين السورين . ولم يكن يؤذن لهم في تجاوز السور الا نهار الجمعة للصلاة في جامع القصر . فكانت مدينته مثالا للمدن المحصنة في القرون الوسطى . وقد دعاها « دار السلام » وتسمى ايضاً « مدينة السلام » . ولو زخمي العرب اختلاف في اشتقاق هذا الاسم ، وبعضهم ينسبون المدينة الى نهر دجلة المدعو « نهر السلام » . على اننا نرى ان المنصور دعاها تقاؤلاً بما ورد في القرآن عن الجنة اذ يدعوها « دار السلام » في قوله : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون . »^{١٢} « والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . »^{١٣} ولا يخفى ان بعض المسلمين كانوا يجعلون الفردوس الارضي في اربعة مراعع منها بغداد ، والثلاثة الاخرى غرطة دمشق ، والابلة ، وشعب بوان في بلاد فارس .

ولكن اسم دار السلام لم ينتشر بين الناس ، على ما يظهر ، ولم يكبد

١٢ القرآن ٦ [الانعام] ١٢٧

١١ يا قوت : م . ك . ١ : ٦٨٣

١٣ القرآن ١٠ [يونس] ٢٦

يتجاوز ألا قليلاً الوثائق الرسمية والتورد . اما العامة فانها ظلت تدعو المدينة بغداد وبغداد وبغدان ، والمؤرخون والشعراء . كذلك . يدل على الامر الشعر العباسي بجملة وكتب التاريخ كلها ، وما نُقل عن موسى بن عبد الحميد التّسامي قال : كنت جالاً عند عبد العزيز بن ابي رواد فانه رجل قتال له : من اين انت ؟ فقال له : من بغداد . فقال : لا تُقل بغداد ، فان بغ صم وداد اعطى . ولكن قل مدينة السلام . فان الله هو السلام والمدن كلها له^(١) .
ودعيت بغداد ايضاً المنصورية والزوراء . اما المنصورية فنسبة الى المنصور .
واما « الزوراء » فاسم يراه سديك محرفاً عن الفارسية^(٢) . ويراه مؤرخو العرب مأخوذاً عن ازورار ابوابها الداخلية ، او عن ازورار القيلة في الجامع الكبير على الضفة الشرقية ، او عن ازورار نهر دجلة فيها^(٣) .

نفقات البناء

لمؤلفي العرب تقديرات متفرقة لما تكلفه المنصور في بناء مدينته ، قد لا يجازي كثرتها من المجازفة . ولعل اقربها الى المعقول ما نقله ياقوت من ان هذه النفقات بلغت ثمانية عشر الف الف دينار^(٤) اي ١٨ مليوناً من الدنانير . وبينما ان نعرف قيمة الدينار وما يعادل في عصرنا كي يمكننا ان نتصور مبلغ هذه النفقات ، فنحكم فيها .

كان الدينار يزن شرعاً ٤,٢٥ غرامات^(٥) ، وقيل بل كان يزن ٤,٤ الى ٤,٧ غرامات من الذهب بميزار ٧٦٧ من الالف على الاقل . وهو ما يعادل في عصرنا ١١,٥٠ فرنكاً ذهبياً او ٧٢ فرنكاً ورقياً على التقريب^(٦) ، اي ما يقرب من ٣٦٠

(١) ياقوت : ك م . ١ : ٦٧٨

(٢) Streck, loc. cit., p. ١٦٥

(٣) راجع في ذلك : Salmon, op. cit., p. ٩١, note ٢ ; Le Strange, op. cit., p. ١١

Massignou, op. cit., p. ٩٨

(٤) ياقوت : ك م . ١ : ٦٨٢

(٥) T. V. Zambaur, *Dinâr*, [Encyc'op. de l'Islam, I, 1002]

(٦) Massignou, *L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et*

غرشاً لبنانياً سورياً . فاذا اعتبرنا هذه المعادلة بلغت نفقات البناء ما يقرب من ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الليرات الفرنسية ذهباً . وهو معقول لان اليد العاملة لم تكن ، اذ ذاك ، من الرخص بحيث نتصوره اليوم ، وان كانت الحاجيات تبدو رخيصة بالنسبة الى عصرنا . ولنا في روايات المؤرخين ادلة كافية على الامرين .

فقد ذكر الخطيب ان الاستاذ من الصنّاع كان يعمل يومه بقيراط الى خمس حبات^(١) ، اي ما يدور حول ١٨ الى ٣٠ غرشاً لبنانياً سورياً ، والروزجاري اي البنّاء ، يعمل بمجبتين الى ثلاث حبات او ما يعادل نصف اجرة الاستاذ تقريباً .

وذكر المصدر نفسه^(٢) ، في ما خصّ اسعار الحاجيات ، ان الكبش كان يباع بدرهم ، اي ما يقرب من ٣٦ غرشاً لبنانياً سورياً^(٣) ، والحل^(٤) باربعة دوانيق^(٥) اي بثلاثي الدرهم = ٢٤ غ . ل . س . والتمر ستين رطلاً^(٦) بدرهم ،

l'essor des banques juives. [Extr. du Bullet. d'études orientales de l'Inst. franc. de Damas, t. I] p 6, note 4

(١) الخطيب: ك. م. ص ٦ - كانت الحبة تعادل ثلث الفيراط . اما الفيراط فهو في الاصل ١/٢٠ من الدينار ، الا ان قيسته كانت تملو وتبسط فتارة كان يعادل ١/٢ درهم وطوراً ١/١٢ من الدرهم . اطاب Sauvaire. *Matériaux pour servir à l'histoire de la métrologie et de la numismatique arabes*, I, p. 102

(٢) نعتبر ان الدرهم كان يعادل ، في اوائل العهد العباسي ، اي في الزمن الذي بسنا امره ، عشر الدينار . وذلك قبل ان تسقط قيمة الفضة فيبلغ الدينار عشرين الى اثنين وعشرين درهماً ، على عهد الرشيد . اطاب Massignon, *op. cit.*, p. 7, note 1 . على ان زيبور يرى ان الدرهم ، حتى في اوائل الاسلام ، كان يعادل جزءاً من عشرين من الدينار على اثر سوقيه ، ان الدينار كان يعادل في زمن المنصور ١٢ درهماً : Salmon, *op. cit.*, p. 82 : Sauvaire, *op. cit.*, supplément p. 203

(٣) وني ياقوت : الجبل ، وهو خطأ مطبعي . (٤) اثنانق = سدس الدرهم .

(٥) اي الرطل البندادي ووزنه ٣٩٧,٢٦ غراماً . اطاب Sauvaire, *op. cit.*, II, p. 181 . ويرى زيبور ان رطل الوزن ، وهو الليرة ، كان يعادل ٣٢٧,٤٥ غراماً . اطاب Zambaur, *Kirāt! [Encyclop. de l'Islam, II, 1083]*

والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية ارطال بدرهم . وزاد في خبر
رفعه الى ابي نعم الفضل بن دكين قال : كان يُنادى على لحم البقر في جبانة
كندة تسمين رطلاً بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم

كانت اسواق المدينة في اول الامر بين السورين حتى حصل ما غير رأي
المنصور في ذلك " . فأمر سنة ٧٧٣ باخراج الاسواق الى ما وراء السور
الخارجي وجعلها في عملة الكرخ ، جنوبي دار السلام ، على تصم خطه
بيده ، وحققه على نفقته ، ورتب كل صنف منها في موضعه ، وقال : « اجعلوا
سوق التصاين في آخر الاسواق ، فانهم سفها . وفي ايديهم الحديد القاطع . »
ولعل لهذا القول صلة بحكاية يوردها المؤرخون وخلاصتها ان المنصور ، قبل
اخرجه الاسواق ، بينما كان يستقبل وفد ملك الروم ، سمع صرخة قوية تحت
القصر ، ثم صرخة ثانية وثالثة ، فأمر ان يُنظر في الامر . فقيل له : « يا امير
المؤمنين ، بقرة قُربت لتذبح فقلبت الجازر وخرجت تدور في الاسواق . »^(١)
ولعل الأرجح في سبب نقل الاسواق والعامه الى الكرخ ما ذكره الخطيب من
ان المنصور كان قد « ولى الحسبة يحيى بن زكريا ، فاستغوى العامة وزين لهم
الجموع قتلته ابو جعفر بباب الذهب - اي باب قصر المنصور - وحوّل اسواق
المدينة الى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحوّل . »^(٢)

ثم أمر المنصور بتوسيع الطرق في مدينة السلام « وجعلها على اربعين
ذراعاً ، وأمر بهدم ما شُخص من الدور عن ذلك القدر . »

ولما كان لا بد من المياه ، أمر فُدّت الى دار السلام قناة من نهر دُجَيْل
الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، و« جرتا » في عقود
وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآبَر من اعلاها . فكانت كل قناة
منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والارياض وتجري صيفاً وشتاً ،
لا يتقطع ماؤها في وقت . »^(٣)

(١) راجع ابن الجوزي : ك.م.م. ص ١٢ - ١٤ ؛ والخطيب : ك.م.م. ص ١٨ - ١٩

(٢) الخطيب : ك.م.م. ص ١٨ (٣) الخطيب : ك.م.م. ص ٢٠

(٤) الخطيب : ك.م.م. ص ١٩

وكذلك زاد الافنية او « الانهر » التي كانت تعصل الى محلة الكرخ وغيرها من ضواحي المدينة. وقد ذكر الخطيب خمسة منها مستعدثة، فضلاً عن القديمة السابقة عهد المنصور كنهـر كرخايا ونهر عيسى وغيرها، قال : « وجرّ لاهل الكرخ وما اتصل بها نهراً يقال له نهر الدجاج وانما سمي بذلك لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ؛ ونهراً يقال له نهر القلائن حدثنا من ادركه جاريأ يلقى في دجلة تحت الفرضة ؛ ونهراً يسمى نهر طابق ؛ ونهراً يقال له نهر البرّازين ، فسمت من يذكر انه تزأ منه ؛ ونهراً في مسجد الانباريين رأيتـه لا ماء فيه . » . ويزيد الخطيب عن هذه الانهر في زمانه ، اي في القرن الحادي عشر^(١) : « تمطلت هذه الانهار ودرس اكثرها حتى لا يوجد له اثر . »^(٢) وقد اجتهد لوسترانج في تمثيلها مستنداً الى الآثار القديمة فخطط التصميم الذي نشرناه في الرسم ١٠٢. الا ان ماسينيون، بعد ان اقام متنبأ في بغداد وجوارها مدة خمسة اشهر من اوائل السنة ١٩٠٨ ، يرى ان اتجاه الانهر على شكل نصف دائرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي في الكرخ، كما يظهر في خارطة لوسترانج ، لا يوافق مستوى الارض في بغداد . بل ان ماسينيون ميل الى مرافقة ستريك في تحطيط نهر عيسى على خط مستقيم حتى مصبه في دجلة^(٣) . اما اسواق الكرخ فكانت عديدة اشهرها ، في ما هيئتنا ، ما يكثر ذكره في كتب الادب كسوق الصاغة ، والقيارية اي سوق الحرايز والانجفة النغيسة ، وسوق الثلاثة ، وسوق الريحانيين ، وسوق العطارين^(٤) ، وسوق الصقارين ، وسوق الصيارفة ، وسوق الفرّانين ، وخصوصاً دار البقل ، التي كانت تقابل ما نعرفه اليوم « باسواق الحضرة » ، ودار البطيخ التي لم تكن تقتصر على بيع البطيخ وحده بل تباع فيها الفواكه بجملتها^(٥) . يدل على ذلك ان الناس سموا « دار

(١) عاش ابو بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي من ٣٩٣ الى ٥٦٣ (١٠٠٣-١٠٧١)

(٢) الخطيب : ك. م. ص ١٩-٢٠

(٣) Massignon, *Mission en Mésopotamie*, II, p. 119

(٤) ذكرها ماسينيون كلها مرجحاً انها لم تزل في عملها القديم، Massignon, *Mission...*

(٥) II, 90-93 ، ان العلفطين : الكتاب المذكور ، ص ٢٢٩ ؛ وياقوت : ك. م. ص ١٧٠

البطيخ « قصيدة ابن الرومي الثورية الطويلة التي مطلعها :
اجنت لك الوصل اصان وكتبان^١ فيهن نوغان تفاح وورمان
والتي يكثر فيها من ذكر الفواكه . ويدل على ذلك ايضاً قول ابن لنكك
في هجر ابي الهيثم كلاب بن حمزة :

انت ابن كل البرايا ، لكن اقتصروا على اسم حمزة ، وصفاً غير تشيخ
كدار^٢ بطيخ نموي كل فاكهة وما اسمها الدهر الا دار^٣ بطيخ (١)

وقد كانت هذه الدار اولاً في مدينة السلام في درب الاسكفة ، ودرب
الزيت ، ودرب العاج ، ثم نقلت الى الكرخ في ايام المهدي ، على قول الخطيب^(١) .
مما يدل على ان الاسواق لم تُنقل كلها دفعة واحدة الى الكرخ ، وهو معقول
خصوصاً اذا انتهنا الى ان المنصور لم يعش طويلاً بعد مباشرته بناء الكرخ ،
فقد توفي في السنة ٧٧٥ .

وبعد ان اهتم المنصور ببناء الـ اوراق في الكرخ باشر بنا قصر له خارج
سور دار السلام مما يلي باب خراسان في الشرق الشمالي ، على شاطئ دجلة في
محل دير نسطوري قديم . وقد سماه « الخلد »^(٢) تشبهاً بجنة الخلد لما حوى
من العجائب . «^(٣)

هذا ما يهنا امره من الابنية في الجانب الغربي من بغداد . وما يجدر
بالذكر ان المنصور لم يتجاوز قط في ابنته الضفة الغربية ، رامياً الى ان يبقى
نهر دجلة بينه وبين الفرس .

عكر المهدي او الرصافة

اما الجانب الشرقي فن اشهر ابنته واقدمها الرصافة او عكر المهدي كما
دُعيت اولاً . وذلك ان المهدي قدم من الري في السنة ٧٧٠ في جيش اكثفه
من الفرس ، فرأى المنصور ان يقيمهم ما وراء النهر . فارسل الى ابنه ان

(١) الخليلي : بنية الدهر ، دمشق ١٣٠٦ هـ . (١٨٨٦) ٢ : ١٢٢

(٢) الخطيب : ك . م . ص ٢٢ - واطلب في « دور البطيخ ببغداد ودمشق في عهد

العباسيين » بمأ لحبيب زيات في الشرق (٢٧) [١٩٣٩] ٢٦١-٢٦٥

(٣) ابن الجوزي : ك . م . ص ١٢

بمسكر هناك. وبدأ يبنّا. المدينة الجديدة مع قصر وجامع ، واجرى اليها الماء ، كما فعل في دار السلام والكرخ . ثم اتّما المهدي بعد وفاة والده وبني سورها ومسجدها وحفر خندقها سنة ٧٢٥ ، وظل مقيماً فيها . وكانت دار السلام - بعد ان هجرها المنصور منتقلاً الى قصر الخالد ، ثم لم يتزلها المهدي مكتفياً بقصره في الرصافة ، ثم اعرض عنها الرشيد مقيماً في الخلد - قد اخذت بالانحطاط والحراب شيئاً فشيئاً بسرعة غريبة ، بما يدلّ على انه لم يكن يسكنها الا ارباب الدوائر من الموظفين .

وكان يصل بين الضفتين ثلاثة جسور ، على قول ابن الجوزي^(١) ، عقدها المنصور ، واحدٌ منها للنساء خاصة ، وواحد عند باب الشمير . وكلها خشبية على السفن المتصّاة احداها بالآخرى . ثم زادت على عهد الرشيد فصارت خمسة وكان الجسران الجديدان في ناحية الشامية ، حيث دور البرامكة . ثم تعطل اثنان في الثورة على الاوين فبقي ثلاثة . ثم تعطل اثنان آخران فلم يبقَ في زمان المتّرشّد (١١١٨ - ١١٣٥) الا جسر واحد عند نهر عيسى . وقد وصف ماسينيون ، في بعثته الى ما بين النهرين ، السنة ١٦٠٨ ، ثلاثة جسور : اولها في الشمال بين الكاظمين والاعظمية ، وهو خارج عن مدينة بغداد الحالية ، وثانيها الجسر المتروّط في الكرخ ، وهو المقصود في اقوال المؤرخين والكتاب اذا ما قالوا « الجسر » ، على الاطلاق ، وثالثها في الجنوب في ناحية قرايه او گورار ، وكلها خشبية على السفن^(٢) . وفي المدينة اليوم جسران احدهما مجدد^(٣) . هذا عدا الجسر الشمالي بين الكاظمين والاعظمية او المعظم . ولم يكن قصد المنصور ، على ما يظهر ، ان يبني مدينة ذات اهمية عالمية ، بل قد تكون غاية الاولى ان يقيم معسكراً لجنوده من الخراسانيين فيعدهم عن الكوفة . ولهذا زاه يوزّع كل ما اتصل بمدينته من الاراضي بين انسابه ورجاله ومواليه . وكذلك فعل عند بناه الرصافة فاقطع رجاله كل الاراضي

(١) ابن الجوزي : ك.م. ص ٢٠

Massignon, *Mission...*, II, 50 (٢)*Les guides bleus*, p. 479 (٣)

القائمة حول البناء . وتبعه على ذلك ابن المهدي . وقد ترك لنا يعقوبي لائحة بهذه الاقطاعات ترجمها سلون الى الفرنسية^١

بغداد بعد المنصور

ثم تتابع البناء على الضفتين في زمن المهدي والمهدي والرشد . فقام قصر زبيدة ، امرأة الرشيد ، قرب قصر الخلد ؛ واتسع الكرخ بأسواقه المتعددة حتى بلغ نهر عيسى فاصبح النهر المذكور حدًا جنوبيًا للمدينة بينما كان باب قطربل يحدّها شمالًا ، واقعًا في حيّ الحربية العامر ويقربه اقطاع السيدة زبيدة زوجة الرشيد . وفي الغرب كانت المدينة تتصل بالمحوّل . اما في الشرق فكانت تحدّها دجلة . وقامت في الضفة الشرقية قصور البرامكة في حيّ الشامية ، واشهرها قصر جعفر تجاه الخلد ؛ تفصل بينهما دجلة . وجذب البرامكة كثيرًا من القوم ، كبارًا وصغارًا ، الى المعيشة في جوارهم فتتابعت البناءات في الضفة الشرقية من الشامية الى دار الروم ، الى المخرم ؛ حتى اصبحت الرصافة في اوائل عهد الرشيد تضارع المدينة الغربية سعةً وازدهارًا . وكان لها من الشمال ثلاثة ابواب شهيرة : باب الشامية ، وباب البردان ، وباب خراسان^٢ . ومن مشاهير سكان المدينة الشرقية الفضل بن الربيع ، وكان مجاورًا للفضل بن يحيى في الشامية ، كما يُستخلص من احدى روايات الاغانى^٣ .

واخذ البرامكة يبالغون في مظاهر الترف متأثرين بتلك الحضارة الفارسية المتأثقة التي ادخلوها دار الخلافة العباسية وصنعوا بها بحالي الدولة الجديدة جميعها فباهوا بتعليق القصور ، ورفع الشرفات والقبة ، وتضخيم الابواب ، والاكتثار من الحجاب ، والمناسف في الرياش الفاخر والمقتنيات الثمينة من جساد وحيران . ولم يكن من اللائق ان يقلّ الخليفة عنهم بذخًا ، بل لم يكن من

(١) Salmon, *op. cit.*, p. 70-73

(٢) يجب التمييز بين وبين الباب القديم في مدينة المنصور المدوّرة المدعو ايضا باب خراسان .

(٣) ابو النرج الاصبهاني : كتاب الاغانى ، بولاق ١٣٨٥ (١٨٦٨) ، ٧:٥٠

اللائق ان يساويهم ، فبزهم في كل شي . وجرى على اثرهم كبار القوم . ووافق ذلك ازدهار في التجارة والصناعة ، وتوفقت في الفزوات ، فحياة رخاء وسعة ومال كثير يتدفق الى بغداد ، والى رجال الدولة منها خاصة ، من جميع انحاء تلك الامبراطورية الواسعة . حتى اصبحت بغداد في مجالي مدنيها ورخائها وترفها وملاهيها وحركتها المتراصلة اعظم مدينة في العالم الاسلامي ، وقد لا نكون مبالغين اذا زدنا : بل اعظم مدينة في العالم اذ ذاك ؛ وهو ما سنشير اليه اذ نعرض لاحصاء سكان بغداد ، في آخر هذا الدرس ، وما مستبسط فيه في بحث مقبل نخصه بذكر الشعوب المختلفة التي كانت تتعايش في هذه المدينة العظيمة . انما نكتفي الآن بالاشارة الى شي . من هذه المظاهر المدنية والترفية مما افاض به الشعراء . فن ذلك قول ابي صفوان الاسدي ، مشيراً الى تلك الصروح الشامخة :

واضحت ببندان في منزل له شرفات دوين البها
وجيش ، وروابطة حوله غلاظ الرقاب كأشد الشرى
بايديهم حداثات الصفال سُربية ينتلبن الصل ١)

وقول عمارة بن عتيل بن بلال بن جرير يعنف طيب الحياة في بغداد وما

في دجلتها من السفن الشامخة :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ، عن نغشها في كل ما حيز ،
ما بين قنار بل فالكرخ نرجة تندي ، ومنات نخيري ونسرين ،
تجيا النفوس برياً ما اذا فذحت رحرنت بين اوراق الرياحين .
سناً لتلك النصور الشامعات ، وما تخفي من البقر الأنسية المين ؛
تنت دجلة فبا ينها ، قترى دم النفين نسالي كالبراذين ،
مناظر ذات ابواب مفتحة أيقف بزخارف وترين ،
فيها النصور انبي عوي باجنحة باثاثرين الى القوم المزودين ،
من كل حرافة يملو فنارعا قصر من الساج عال ذو اساطين ٢)

وفي وصف الحرافات في دجلة بيتان لابي نواس قالهما عندما امر الامين ان يعمل له ، في سيل لهو ومسرتة ، خمس حرافات على صور الاسد والفيل

١) الغالي : الامالي (طبعة دار الكتب المصرية) القاهرة ١٩٢٦ ، ٢ : ٢٢٧

٢) باقوت : ك . م . ١ : ٦٨٦ - ٦٨٧

والمقاب والحية والفرس . فعملت وسُيرت في دجلة ، وركب الامين في حراقة الاسد . فقال ابو نوحس :

عجب الناس ، اذ راوك على صو رقر ليثر غرماً مرّ الجباب -
سبحوا ، اذ راوك سرت عليه ، كيف لو ابروك فوق المقاب (١)

كلمات بغداد

على ان هذا الازدهار العجيب توقف فجأة بسبب تلك الفتنة الهائلة التي حدثت بين الامين والمأمون ، بل بين العرب والفرس ، فقامت بغداد حصارها الاول سنة ٨١٢ ، مدة اربعة عشر شهراً ، فكان شديد الوطأة على الجانبين . وكان المأمون قد سير لحصار اخيه جيشاً انقسم قسمين : قسماً حاصر الجانب الشرقي بقيادة هرثة بن أعين ، فمكر قرب باب خراسان المذكور آنفاً ، وقسماً حاصر الجانب الغربي بقيادة طاهر بن الحسين فاحتل الابواب الغربية واخذ يتقدم شيئاً فشيئاً . اما الامين فالتجأ الى المدينة المدوّرة وتحصّن فيها . حتى اذا ينس من الظفر خرج ليلاً من باب خراسان وركب سفينة فاصداً . مكر هرثة على الجانب الشرقي ، فحرف ، فأملك ، وقتل .

فكان من نتائج هذا الحصار ان نُكبت بغداد نكبة عظيمة فخرت احياء برمتها ولاسيما في الرصافة والشامية ، وكانت تصدر البرامكة في هذا الحلي قد انتقلت ، بعد ايقاع الرشيد بهم سنة ٨١٠ . الى الخلافة ، وقصر جعفر الى المأمون خاصة . وما زاد المصيبة على بغداد ان الرضاع اعلموا يد النهب والتخريب والحريق في المدينة ، اثناء حرب الاخوين ، وبعد قتل الامين . فاحترت دور الحكومة وقصور الامين الخاصة .

ولم يتمكن المأمون من ترميم المدينة حالاً بعد انتصاره ، لانه ظل في خراسان ، ولم يدخل بغداد الا بعد مقتل اخيه تجس سنوات .

وكان ، اثناء ذلك ، قد اعلان سنة ٨١٧ انه يبيع بولاية العهد امام العلويين ، علي الرضا ابن موسى الكاظم . فنقب عليه العباسيون في بغداد وخلصوه وبايعوا

عمه ابراهيم بن المهدي المشهور بالفناء ، ولقبوه « المبارك » . الا انه لم يكن مباركاً في خلافته القصيرة . وهو لم يهتم في حياته الا بالثرب وضرب المود والفناء ، فابن منه ضبط الاحكام ؟

وكان افراد الجيش وغوغا . العلة قد اعتادوا النهب والتخريب فلم يفتروا عاداتهم ، فظلت الفوضى سائدة في المدينة . وليس ما يشير الى ان اهل بغداد اهتموا الاهتمام الكافي بهذا الخليفة الجديد . بل قد لا نبعد عن الصواب اذا قلنا انهم نادوا به غيظاً للمأمون ، ورغبة في الشنب ليس غير . يدل على ذلك ما اورد صاحب الاغانى من حديث رفع الى اسحق مفاده ان ابراهيم بن المهدي يبيع وقد قتل المال عنده . « وكان قد جلب اليه اعراب من اعراب السواد وغيرهم من اوغاد الناس فاحتبس عنهم العطاء . فجعل ابراهيم يسوقهم ولا يرون له حقيقة . الى ان خرج اليهم رسوله يوماً ، وقد اجتمعوا وضجوا ، فصرح لهم بانه لا مال عنده . فقال قوم من غوغا . اهل بغداد : « اخرجوا الينا خليفتنا يعني لاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، ولاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، فتكون عطاء لهم . . . »^(١) وكفى بهذا القول دليلاً على روح التهم في اهل بغداد ، وعلى انهم لم يتيسروا وزناً لهذا الخليفة الجديد . ومن الادلة ايضاً انه عندما مات علي الرضا ، في السنة التالية ، وكب المأمون الى اهل بغداد قائلاً : « انا نعتم علي بسبب علي الرضا وقد مات . . . » ثاروا على ابراهيم بن المهدي فخلعوه ، فهرب واختفى . ولم ينل بغداد من خلافته الا مزيد فوضى ، ورتابع خراب .

على عهد المأمون

وفي ١٥ صفر سنة ٢٠٤ للهجرة الموافق الى ١١ آب ٨١٩ دخل المأمون بغداد ، فقتل الرضاة أولاً^(٢) واقام في قصره على شاطئ دجلة ، وهو قصر

(١) الاغانى ١٨ : ٤٣ - ومن هذا النوع قول دعبل في مجوه ابراهيم :

خليفة مصحف البربط

(٢) اطلب : ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طينور : الجزء السادس من كتاب بغداد

(نشر Keller) ليبك ١٩٠٨ ، ص ٢

جغفر القديم المعروف بالتصير « الجعفري » ، و« الشطي » ، ثم « الأمرني » .
فرثمه ووسعه ، « وانتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب
بالصوالة ، وحيثاً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ،
واجرى فيه نهراً ساقه من نهر الملقى . وابتنى مثل قريباً منه منازل يرسم
خاصته واصحابه سُميت المأمونية »^(١) .

ثم انتقل المأمون الى قصر الخلد ، واهتم بتدعيم عاصمته ، وتوطينها ، فضلاً
عن اساليب اللهو والسرور ، بكتب العلم والادب بما افاض به المؤرخون .
حتى بلغت بغداد في عصره درجة سامية من الازدهار انتبها التكتات السابقة .
فكثرت الثروات فيها ، وانغمس اربابها في الترف . انغمساً شديداً . ولطنا زى
شاهداً على هذا في وصف عرس المأمون ، اذ عُقد له على بوران بنت الحسن بن
سهل سنة ٨٢٥ ، مختصر ذلك عن المؤرخين ولا سيما المسعودي^(٢) .

كان الحسن بن سهل ، ابو العروس ، يقيم في فم الصلح ، وهي بلدة على
ضفة دجلة بالقرب من واسط . فأنحدر المأمون في النهر مع اهله واصحابه
وامرائه وبعض جنده . وحل ضيفاً على الحسن تسعة عشر يوماً حتى كان ميعاد
المرس . فخرج الناس لحضوره ، بطريق النهر ، حتى قيل ان عدد الملاحين في
السفن التي كانت تنقل الناس بلغ عشرة آلاف وقيل : بل كان ستة وثلاثين
الفاً . هذا عدا الزوارق والسفن الخاصة .

« ونثر الحسن في ذلك الاملاك (المرس) ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط
في جاهلية ولا اسلام . وذلك انه نثر على الهاشيين والقواد والكتاب والوجه
بنادق مسك فيها رقاع باسما . ضياع واسما . جوار وصفات ودواب وغير ذلك .
فكانت البندقية اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فيجد على
قدر اقباله وسعوده فيها . فيسضي الى الوكيل الذي نُصِب لذلك ، فيقول له :
ضيعة يُقال لها فلانة من طسوج كذا من رستاق كذا . وجارية يقال لها

(١) باقرت : ك . م . ١٠٢ : ٨٠٢

(٢) المسعودي : مروج الذهب (طبعة Barbier de Meynard) ٧ : ٦٥-٦٦

فلانة . ودابة صفتها كذا وكذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم وتوافج المك وبيض العنبر . وانفق على المأمون وعلى جميع قواده واصحابه وسائر من كان معه من جنوده ايام مقامه عنده حتى المكارين والملاحين والحنالين ، وكل من ضئه عسكره من تابع ومتبوع ومرتبك وغيره . فلم يكن احد الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يتطعم ولا مما تملفه اليه انهم . هذا بعض ما انفق الحسن بن سهل . عدا ما انفق المأمون . ومهما يكن من مبالغة فان الاحتفال بهذا العرس ، واهتمام الناس به على اختلاف طبقاتهم لدليل على الرخاء الذي كانت تتمتع به الدولة اذ ذاك . وكان من جملة تقادم المأمون أن اهدى الى عمه قصره المأموني ، قصر جعفر القديم ، فعرف من ثم « بالقصر الحسيني » . وقد انتقل هذا القصر الى بوران بعد وفاة ابيها فاقامت فيه حتى خلافة المعتد على الله (٨٧٠-٨٩٢) فطلبه منها ، فاصلحته واهدته اليه .

الانتقال بالتحريف الى سامراء

ولي الخلافة بعد المأمون اخوه المعتصم فكان من آثاره في بغداد انه شق نهر موسى . ولكن لم يقم فيها طويلاً ، حتى اخذ اهل المدينة يتشكون من جنوده من الترك ، وقد كثروا حتى بلغوا السبعين ألفاً فكانوا يؤذون الناس . فرأى المعتصم ان يبعدهم عن المدينة . فانتقل بهم ، وبارباب دوازه ، الى محلة تبعد ثلاثة ايام عن بغداد صوداً على ضفة دجلة ، فبنى فيها مدينة سامراً او سُراً من رأى ، التي صارت عاصمة للخلافة مدة ٥٦ سنة (٨٣٦-٨٩٢) فاقام فيها ثمانية خلفاء .

اما بغداد فكان يحكمها الولاة في تلك المدة . وكان اكثرهم من اسرة طاهر بن الحسين . ولا يظهر ان انتقال الخلافة والدوائر الرسمية منها اثر كثيراً فيها من حيث التجارة وازدهار الاعمال .

كلمات هجرية

على ان انتقال الخلافة لم يكن ليجعل بغداد يمزل عن الحركات الثورية وما تجرّه عادة من ملئات ونكبات متنوعة . من الحق ان الجيش التركي وما

يتعلق به من سرترقة وشذاذ وغوغا. ، وطبقات الحاشية التركية جميعها ، كانت قد انقلت مع الخليفة فسلمت بغداد نوعاً من نتائج فوضاها المباشرة . الا انها لم تسلم من تأثير هذه الفوضى ، عندما كانت تقوى في سمرًا فتجاوز الى الثورة . كما حصل في السنة ٨٦٥ ، اذ ثار الجيش على المستعين (٨٦٢-٨٦٦) ، ولم يكن ذلك الا مظهرًا من مظاهر استبداد الاتراك بالخلفاء البادئ منذ عصر المعتصم (٨٣٢-٨٤٢) . فهرب الخليفة ليلاً ، وانحدر الى بغداد . فبايع الخدم في سمرًا المعتز بالله . فكان من اول اعمال الخليفة الجديد ان جهز جيشاً لمحاصرة بغداد والظفر بالمستعين . وكان حصار بغداد الثاني ، مؤدياً الى ما ادى اليه الحصار الاول من خراب وحريق ونهب . وكان الله خص الجانب الشرقي بتحتل القسط الاوفر من النكبات فخربت محلات الشنسية والمخرم ثم تابعت الثورات المتنوعة في بغداد فدامت الفوضى اكثر من ثلاث سنوات (٨٦٦-٨٦٩) بين ظهور وخفوت .

اما في سمرًا فاخذت رقابة الاتراك على الخلفاء تشتد وطأة شيئاً فشيئاً . حتى كره المعتد على الله (٨٧٠-٨٩٢) ان يظل في تلك البيئة الفاسدة ، فساد بالخلافة الى بغداد في آخر ايامه .

الرجوع من سمرًا

القصر الحسيني ، والتاج ، والثريا

وكان قد طلب من بوران^(١) ، ارملة المأمون ، ان تعطيه القصر الحسيني الذي كان المأمون قد اهداه الى عمه الحسن فانتقل اليها بعد وفاته . « فاستنظرت المعتد^(٢) اياماً حتى رتمته وبيضته وجصصته وفرشته باجل الفرس واحسنه .

(١) عاشت بوران ٧٦ سنة (٨٠٨-٨٨٤) وترؤجها المأمون سنة ٨٢٥ ، كما تقدم . وماتت في خلافة المعتد المذكور فلم تدرك المعتد (٨٩٢-٩٠٢) . واذاً فلا صحة لما ذكره بعض المؤرخين من انها اهدت القصر الحسيني الى المعتد . انما اهدته الى المعتد ، كما ذكرنا اعلاه .

(٢) لا المعتد كما اورد الخطيب : ك . م . ص ٤٨ ، ونقل عنه ابن الجوزي : ك . م .

وعلمت اصناف السور على ابوابه وملأت خزائنه بكل ما يُخدم الخلفاء. به .
ورُتبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه. ^{١٥} ثم اهدته الى المعتد
فكان يقيم مدة فيه ومدة في سائرًا حتى انتقل اليه نهائياً . ومات فيه .
ووليّه المعتضد بالله (٨٩٢-٩٠٢) ثم ابنه المكتفي (٩٠٢-٩٠٨) . وكانا
من ارباب السطوة والهيبة ، ومن الراغبين في البناء والصمران . فقضت بغداد في
عصرهما عهد راحة وطأنينة واستعادت ماضي ازدهارها .
وكان من آثار المعتضد ان وسع القصر الحسيني واطاف اليه دوراً عديدة ،
واقطع قسماً من البرية فجعله ميداناً . واحاط الجميع بسور . ثم وضع أساس
قصر آخر سماه « التاج » . وكان ان خرج الى آمد في اثنا حفر الاساسات .
فلما عاد « رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكره ذلك » وترك التاج . ثم اختط
على ميلين منه ، على نهر موسى ، قصرًا جديدًا دعاه « الثريا » . ووصله بالقصر
الحسيني بواسطة سرداب معقود تحت الارض تمتد فيه الجواري والحرم
والسراري . وجعل حول الثريا الجنائن الزاهرة تترقرق فيها المياه ، على نحو ما
وصف ابن المعتز في قوله :

سلت ، امير المؤمنين ، على السور ، فلا زلت فيسا باقياً واسع السير !
حلت الثريا غير دار وداري ، فلا زال ممدوداً ، ويورك من قصر ! ...
جنان واشجار ثلاث نسوحا ، واورقن مالخار والورق الخضرا ،
نرى الظهر في اعصا من هوائها ، تنقل من وكر لمن الى وكر ...
وبنان قصر قد بنت شرفانه كصف نساء قد ترنن في الأزر
واسرارها كاللؤلؤ وحيت لترضع اولاد الرياحين والزهرا
وميدان وحير تركس الخيل ومنه فيؤخذ فيها ما يشاء على قدر ...
عطابا انهم منهم كان عمالاً بانك اوفى الناس فيهن بالشكر . (٢)
وظل القصر قائماً حتى فاضت دجلة فيضاناً قريباً سنة ٥١٦٦ هـ . ^{١٦} (١٠٧٣-)

ص ١٥ ؛ على انما اشاروا اليه ان آخر القائل ان المعتضد طلب النصر .

(١) الخطيب : الموضوع المذكور ؛ وياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٨ .

(٢) ابن المعتز : الديوان . طبعة الانسي ، بيروت ١٣٣١ (١٩١٣) ص ١٢٨-١٢٩

(٣) ابن الجوزي : ك . م . ١٧ ص

(١٠٧٤) وهو « الفرق الاول » كما يدعوه ياقوت^(١) ، فاحدثت خراباً عظيماً في بغداد ، وكان من جملة ذلك خراب الثريا .
 اما التاج فقد اتمَّ بناءه المكتفي بالله (٩٠٢-٩٠٨) ابن المعتض ، بواجهة مبنية على « خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين خمسة اذرع »^(٢) . وكان المعتض قد امر بنقض القصر الابيض الكسروي في المدائن ، ذلك الذي يشر نقضه المنصور ثم اقلع ، فنقضت مشارفه ووضعت في الاساس . ثم نُقض ما تبقى منه ، على عهد المكتفي ، ووضعت آجره في مشارف التاج . وكان يتولى العمل رجل اسمه ابو عبد الله التكري ، فاعتبر هذا الامر وبكى ، على ما اورد ياقوت ، وقال : « ان فيما زاه لمعتراً : نقضنا شرفات القصر الابيض وجعلناه في مائة التاج ، ونقضنا اسساته فجعلناها شرفات آخر . فسبحان من بيده كل شي . حتى الآجر . »^(٣)

وربى المكتفي الى جنب القصر قبة دُعيت قبة الحمار^(٤) لانه كان يُصعد اليها في مدرج حولها على حمار لطيف ، وهي عالية مثل نصف الدائرة .^(٥)
 فكانت هذه البنائات من اعاجيب بغداد . وبقيت كذلك مدة قرنين ونصف حتى كانت السنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤) ، في عهد المتقي لامرأته (١١٣٦-١١٦٠) ، فوقعت صاعقة على القصر فتأججت النار فيه وفي القبة ، وبقيت تعمل تسعة ايام . ثم اطفت وقد صيرته كالفضة .^(٦)

بعد المكتفي باقعه ارتقى عرش الخلافة المتقدر بنه (٩٠٨-٩٣٢)^(٧) . وكان ، على ضعف سلطته تجاه تأثير الخدم النافذ^(٨) ، وافر رغبة في مظاهر الاناقة والترف . فزاد في زينة دار الخلافة ريدة عجيبة قد يفوق وصفها

(١) ياقوت : ك . م . ٨٠٨ : ١ . (٢) ياقوت : ك . م . ٨٠٩ : ١ .

(٣) تتخلل خلافته خلافة ابن المتز يوماً واحداً ، بل مض يوم ، سنة ٩٠٨ ، وخلافة الفاهر يومين سنة ٩٢٩ .

(٤) من الامثلة على هذا التأثير ما يذكر ابن العبري في تاريخ السنة ٣١٧ هـ . (٩٢٩) : « وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة خلع المتقدر باقعه عن القبة ، وبويع اخوه الفاهر باقعه محمد ابن المعتض فبقي يومين . ثم اعبد المتقدر . وكان السبب في ذلك استيلاءش مؤنس الخادم . » (ابن العبري : ك . م . ص ٢٧٢-٢٧٣)

وصف قصر الاساطير والحكايات . وقد نقل لنا الخطيب البغدادي تفصيل مظاهر هذه الفخخة عند ذكره وفد الروم القادم على المقدر . واننا نستند اليه في الاشارة باختصار الى ما كان في دار الخلافة من مظاهر الابهة . من ذلك « دار الفيلة » فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي . و« دار السباع » فيها مائة سبع . وبستان في وسطه « بركة رصاص قلعي حوالها نهر رصاص قلعي احسن من الفضة المجلوة ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فيها اربع طيارات لطاف مذهبة مزينة بالديبقي المطرز . وفي البستان اربعمائة نخلة طول كل واحدة خمس اذرع . و« دار الشجرة » وفيها « شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف . وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة . واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب . وهي تتايل في اوقات ، ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر . وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . »^(١) ويؤيد الخطيب ذاكراً تتايل الفرسان القائمة حول البركة ، وهو يؤيد ما قلناه سابقاً عند ذكر صنم « القبة الخضراء »^(٢) . وهذا كلامه بنصه : « وفي جانب الدار بينة البركة تتايل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد البسوا السدياج وغيره . وفي ايديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد . وفي الجانب الايسر مثل ذلك . »^(٣) الى ما هنالك من مخازن السلاح ، وانواع الزرش والبسط الفاخرة ، والرياش الفاخر ، وكثرة الخدم والظلمان وتنوع مراتبهم واختصاصياتهم حتى لقد كان في دار الخلافة سبعة آلاف خادم : اربعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ، وسبعائة حاجب ، وكان عدد الجيش مائة وستين الف فارس وراجل^(٤) . الى غير ذلك من آلات الابهة ومظاهر العظمة مما حار به موفدا الروم فغلب لهما كما يُستخلص من الوصف الطويل الذي خصه المؤلف بتلك الوفاة^(٥) .

(١) الخطيب : ك . م . ص ٥٣-٥٤ (٢) راجع ص ٨١

(٣) الخطيب : ك . م . ص ٥٤ (٤) الخطيب : ك . م . ص ٥١

(٥) الخطيب : ك . م . ص ٤٩-٥٦ . - اما الموفدان فكانا البطريق جران رادينوس

وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا ان عصر المقتدر كان ، كعصر الرشيد والمأمون ، من اعظم العصور عائدةً على بغداد من حيث ازدهارها ، واتساع حركتها ، ووفرة مظاهر البذخ والترف فيها^(١) .

على ان للندن ، كما للافراد والشعوب ، سني نعيم وسني شقاء ، وعصور ازدهار وعصور انحطاط . وقد سرّ بنا ذكر شي . مما توالى على بغداد من التوائب . وكان لها ان تقاسي شيئاً من ذلك ايضاً بعد عصر المقتدر . فقد تعددت مظاهر الشغب ، ولاسيما في الجليش ، وما يليها من نهب وحريق ، حتى ضُفّت الخلافة شيئاً فشيئاً منذ عصر الراضي (١٣٤-١٤٠) فقويت شوكة الخدم وازداد نفوذهم ، بل اصبحوا الحكام المطلقين . قامت الانحلال في عناصر السطة الاصلية ، وكثرت النوضى والفتن الداخلية والتكبات ، كما مهد السيل لدخول البويهيين ببغداد سنة ١٤٦ ؛ فتشعبت السطة ، وتعددت بلاطات الملوك والامراء ، وفي كل منها طائفة من الادبا . فلم تبقى ببغداد تلك العاصمة الادبية العظيمة ، بل انحطت الى درجة غيرها ، بل الى احط من درجة غيرها من العواصم التي تقست مظاهر الادب العربي منذ القرن العاشر . ولا يدخل في بحثنا هذا درس بغداد بعد ذلك العصر^(٢) .

وميشال نوكراس ، اوفدهما الامبراطور قسطنطين پورفروجينيت في طلب المهادنة والقضاء . فاحسن المقتدر وفادعها ، واجابها الى رغبة الامبراطور . اطلب ابن العربي :

ك . م . ٢٧٠ ؛ و ، Salmon, *op. cit.*, p. 132, note 1.

(١) وبينما كانت بغداد تتقدم وتستبد ازدهارها بسرعة عجيبة ، كانت سامراً تنحط وتناخر بسرعة عجيبة كذلك . فيعد ان اوجدها المعتم كبيرة ضخمة دفعة واحدة ، وبلغ بها التوكل اسمى درجات الفخامة ، هبطت اذ انتقل عنها المنهد هبوطاً عظيماً ، حتى لم يضر على ذلك الانتقال بضع عشرة سنة الا كان الحراب قد شمل اكثرها ، واخذ الناس يسرون انتقاض قصورها المتداعية « كالنيل المائت تسَلّ من العظام » على قول ابن المعتز :

قد انقرت سرّ من راء ، وما لشيء دوام !

فالتفض يحمل منها ، كما نسا آجام ،

ماتت ، كما مات قيل ، تسَلّ من العظام !

(٢) بعد المطالع في بيته ماسينون Massignon, *Mission...*, p. 77-118 وصفاً اجمالياً لا

تبقى من آثار بغداد القديمة حتى السنة ١٩٠٨

عدد سكانه بضرار
احصائيات متنوعة

كم كان يعيش من الناس في هذه المدينة العظيمة ؟
نقر بكل بساطة ان مؤرخي العرب ، الذين حسبوا لنا كم دخل من لينة في كل ساف من سور مدينة المنصور ، وعدوا الدنانير والدرهم المنقعة على بناء تلك المدينة ، وذرعوا كل ما بناه الخلفاء طوًلاً وعرضاً وارتفاعاً ، لم يكلفوا انفسهم القيام باحصاء معقول لسكان تلك المدينة . ولا يعني هذا ان ليس لدينا ارقام . . . ان الارقام لكثيرة حتى تدفنا تلك الكثرة الى الارتباب والشك فالظن ان اربابها لا يقدرّون ماهيتها ، ولا ما تمثّل في الحقيقة . وكل هذه الارقام ترجع الى خراب بغداد على يد هولاء سنة ١٢٥٨ ، زمن انقراض الدولة العباسية ، وكانت العاصمة قد انحطت كثيراً عن عظمتها السابقة ، فدخلها التار واعلموا السيف في اهلها . وهنا يتبارى المؤرخون في عدّ القتلى فيتجاوزون مئات الالوف الى الملايين ، متنقلين بين « ثمانائة الف » ، « وما ينيف على الف الف وثلثمائة الف وثلثين الف نفس » لا اكثر ولا اقل^١ .
فاذا كان هذا عدد القتلى في بغداد ، آخر زمن الخلافة العباسية ، وقد خرب الكثير من احيائها بسبب الثورات والحرائق والمشاغبات المتتابعة . فكم وجب ان يكون عدد سكانها على عهد المأمون او المقتدر ؟
فواضح اذاً ان هذا الاحصاء غير معقول ، وان هذا القياس لا يمكن ان يتخذ به .

على ان هناك قياساً آخر يُجتمَل الى المدارس ، اول وهلة ، انه يمكن الاعتماد عليه . وهو عدد الحمامات والمساجد في بغداد ابان ازدهارها ، وقد نُني الخطيب بذكرها .

اما الحمامات فقد نقل الخطيب عن قرأ في « كتاب بغداد » لطيفور الكاتب

(١) اطلب في ذلك بحثاً دقيقاً لمحب زبات : « المجازفة بالارقام في التاريخ » في المشرق (٣١) [١٩٣٣] : ١٦٦-١٦٧

في القرن التاسع (٨٩٣+) انها كانت ستين الفاً . وزاد : « اقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمّامي ، وقيم ، وزبال ، ووقاد ، وسقا . . . يكون ذلك « ثلثائة الف رجل » . ثم حسب كم يُنفق من الصابون فن الزيت ليلة العيد^١ . . . اما المساجد فذكر المؤرخ نفسه « انه يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلثائة الف مسجد . وتقدير ذلك ان يكون اقل ما يكون في كل مسجد خمسة انفس ؛ يكون ذلك الف الف وخمائة الف انسان .^١ »

٣٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة الحمامات ، و١,٥٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة المساجد ا
أو يمكن ان نتصور هذا في بنداد مها كانت ضخمة ، ومها بلغ من رغبة
اهلها في النظافة ، ومها كان من تقواهم وشعورهم الديني . لا شك في ان
الحمامات كانت عديدة لاسباب منها كثرة الفبار والعرق في تلك المنطقة
الحارة ، ومنها الرغبة في التمتع والرفاهية ، ومنها فروض الاسلام الدينية من
وضوه وتطهير . . . ولا شك في ان المساجد كانت عديدة كذلك ، بل كان
من عادة الوزراء والكبراء ان يبنوا المساجد بدليل ما يُستخرج من قول من
هجا البرامكة بريائهم وتظاهروهم بالدين الاسلامي على كفرهم الباطني ، قال :
ان الفراغ دعاني الى بناء المساجد
وان رأيت فيها كراي يحيى بن خالد ؛

اما ان تبلغ الحمامات والمساجد الى العدد المذكور اعلاه فغير معقول . وما
قولكم في مدينة يبلغ عدد خدمة الحمامات والمساجد فيها مليوناً وثمانائة
الف . . . ايجب ان يقل عدد سكانها عن الخمسين مليوناً ؟ . . . وهي ارقام
اقرب الى الخيال والمجازفة منها الى العقل السليم .

ولعل عدد الحمامات كان يدور حول ثلاثة آلاف ، كما ذكر الخطيب نفسه
في احدي رواياته المتعددة^٢ ، وقد يكون عدد المساجد قريباً من هذا الرقم .
وهناك احصاء آخر قد يقدمنا بعض الشيء في تقدير عدد السكان ، وهو
احصاء الاطباء . وتفصيل ذلك ان المتطيين كثروا في بنداد في اوائل القرن
العاشر ، وكان فيهم عدد من الدجالين يجازفون بارواح البباد بل ان بعضهم سقى

(١) الخطيب : ك . م . ص ٧٤-٧٥ (٢) الخطيب : ك . م . ص ٧٥

رجلاً دواءً فاسداً فمات الرجل . فامر الخليفة ، إما المتندر وإما القاهر ، بمنع جميعهم عن التطيب إلا من امتحنه ستان بن ثابت (٩٤٣) واعطاه تصريحاً . فصاروا اليه فامتنحهم وصرف كلاً منهم بما يصلح له . وقد بلغ ما اعطى من المأذونيات ثمانمائة وستين في جاني بغداد . هذا عدا من استغنى بشهرته عن الامتحان ، وعدا من كان متعلقاً بخدمة السلطان . فاذا قدرنا عدد هؤلاء الاطباء المشهورين قريباً من المائة والحسين ، كان لنا في بغداد ، زمن ازدهارها ، نحو الف طبيب .

وإذا اعتبرنا الآن مدينة بيروت ، وهي مشهورة بكثرة اطباؤها ، رأينا ان عددهم فيها يبلغ ٢٦٥ طبيباً . اما سكان بيروت فيلقون ، بحسب احصاء سنة ١٩٣٢ ، ١٦٠,٢٥٩ يُضاف اليهم كثير من سكان العاصمة الذين تعبدوا في الجبل ، وعدد من الذين لم يحضروا . وعليه فاننا لا نبالغ اذا رفعنا هذا الرقم الى المائتي الف . فيكون فيها طبيب لكل ٧٥٤ شخصاً تقريباً . هذا في بيروت المشهورة بكثرة الاطباء . اما في بغداد العباسيين فيكتنا بكل سهولة ان نقدر طبيباً لكل الف شخص ، فيكون لنا مجموع من السكان يقرب من المليون . وهو معقول .

وقد فصل الى النتيجة نفسها اذا ما استندنا الى مساحة بغداد في ذاك العصر . وهنا لا بد من العودة الى الخطيب . فقد ذكر عدة روايات في مساحة عاصمة العباسيين ، منها رواية طيفور وخلصتها ان مساحة بغداد كانت ، في القرن التاسع ، ٥٣,٢٥٠ جريباً . ورواية محمد بن يحيى البالغة بمساحة بغداد ٤٣,٢٥٠ جريباً^(١) .

اما الجريب فيختلف مقداره باختلاف البلدان . وفي كتب اللغة ومجموعات المكابيل تقادير عديدة . منها انه كان يبلغ عشرة اقفزة والقفزة من الارض مائة واربع واربعون ذراعاً ، ومنها انه اربعة اقفزة ، ومنها انه عشرة آلاف ذراع ؛ وهذا الاختلاف ناتج عن ان الجريب كان مقياساً للكيل ، ثم قياساً للمساحة التي تتسع لبدار جريب من الحنطة . فخلط الناس بينهما وبين كسر

الكيل وكسر المساحة . ولعلّ الاقرب الى الصواب ما ذكره قدامة من ان الجريب ثلاثة آلاف وستائة ذراع ، ويريد الذراع السودا . او المأمونية المربعة ، وقد تقدم لنا انها تعادل نحو نصف المتر .

فاذا اعتبرنا هذا المقدار للجريب وضربنا به العدد المذكور لمساحة بغداد عن طيفور كان لنا $3,600 \times 53,750 = 193,500,000$ ذراع مربعة . واذا حوّلناها الى امتار على حساب الذراع السودا المتقدمة الذكر كان لنا $18,375,000$ متر مربع^(١) ، وهو ما يقرب من تقدير ستريك لمساحة بغداد في عهد المهدي ، اذ يقول انها كانت تبلغ من سبعة الى ثمانية كيلومترات في مثلها^(٢) . هذا معادل ما ذكره طيفور (٨٩٣ هـ) . ولا يخفى ان بغداد اتسعت بعد هذا العهد ، ولاسيما زمن المكثفي والمتندر ، حتى اننا لا نخطئ اذا افننا الى تقديرونا وتقدير ستريك ثلث قيسته ، فتبلغ مساحتها من ٦٠ الى ٢٠ مليوناً من الامتار المربعة ، يخرج منها لا اقل من عشرة ملايين مساحة القصور والبساتين والشوارع والساحات العلمة والمقابر . ثم اذا جعلنا الليت الصغير المتسع حثة انفاد فقط من ٣٠٠ الى ٤٠٠ متر مربع كان لنا ما يقرب من مائتي الف بيت مجموع سكانها نحو مليون نفس ، عدا ارباب القصور وحاشية الخلافة ، وهو معقول . وقد وصلنا الى مثل هذا التقدير في الاستناد الى عدد الاطبا . هذا وما يدل على سعة بغداد القديمة ووفرة عدد سكانها ان بغداد الخالية

(١) لقد عرض الامير شكيب ارسلان لهذا الموضوع في مقال دعاه « مدينة النخاع » وصف فيه تاريخ بغداد للخطيب (مجلة « الثقافة » دمشق ، العدد الاول : نيسان ١٩٣٣ ص ٤-١٥) فاعتد الرواية الثانية الفائلة : ٦٣,٧٥٠ جريباً ، واعتبر الجريب عشرة اقفزة ، والفجيز مائة واربع واربعين ذراعاً ، فكان له « ثلاثة وستون مليون ذراع مربع » (كذا في ص ١) ثم اعتبر الذراع ثلثي المتر فطرح من قيسه المساحة ثلثها فكان له ٦٣,٠٠٠,٠٠٠ متر مربع . وفاته ان عملية الطرح هذه فاسدة ، لان الذراع البسيطة اذا كانت ثلثي المتر البسيط ، لا يتكمن ان تكون الذراع المربعة ثلثي المتر المربع ، وهو من بدجيات علم الحساب . . . واذا ، فتكون النتيجة انه بالغ في تقدير بغداد ، واعطاها مساحة لا يمكنها ان تع « الثلاثة الملايين » اني يريد ان يحلها فيها (ص ١٤) .

لا تحتل اكثر من ربع المساحة القديمة ، على كون سكانها يقربون اليوم من
ثلاثة الف . وكذلك ان مدينة الكاظمين التي كانت سابقاً في اطراف بغداد
الكبرى تبعد عن بغداد اليوم نحو عشر دقائق بالسيارة .

وللتدما . شهادات عديدة على كثرة السكان في هذه المدينة الهائلة . من
ذلك قول ابن الجوزي ان المجتاز كان « لا يخلص في سوق الكبش والاسد -
وهي في اطراف المدينة - من كثرة الرحمة . »^(١) وما رواه ياقوت عن عبد الملك
ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، انه قدم بغداد فرأى كثرة الناس بها
فقال : « ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد
نودي فيهم . »^(٢)

واذاً فلا نستغرب ان يبدأ ياقوت مقاله عن بغداد بقوله : هي « أم الدنيا
وسيدة البلاد . »^(٣) ولا نستغرب كذلك ان يسأل الامام الشافعي تلميذه
يونس بن عبد الاعلى : « يا يونس دخلت بغداد ؟ » فيجيب يونس : لا . فيقول
الامام : « يا يونس ، ما رأيت الدنيا ، ولا رأيت الناس ا »^(٤)

اما العناصر البشرية التي كانت تمايش في هذه « الدنيا » ، فتمازج ،
وتتنافس ، وتتطاحن في سبل الحياة المتنوعة ، فنسخت بدرستها بحثاً آخر ، ان
شا . الله .

ملحوظ

رأينا ان تلحق بهذا البحث جدولين :
الجدول الاول باسما الملوك البائين في الحقة التي جينا درسها ، وهو مروض على
مظهرين : ١ - حسب تسلسل خلافتهم - ٢ - حسب تسلسل انماجهم
الجدول الثاني باسما مؤرخي بغداد عصرنا فعراً .

(١) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٤

(٢) ياقوت : ك . م . ص ٦٨٧

(٣) ياقوت : ك . م . ص ٦٧٧

(٤) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٢

الجدول الاول

١ - الخلفاء حسب تسلسل خلافتهم

الفاشية	٧٥٤ - ٧٤٩	٣٠ ت ١	١ الفاج
دار السلام	٧٧٥ - ٧٧٥	٩ حزيران	٢ المنصور
امّ الرصافة	٧٨٥ - ٧٧٥	٧ ت ١	٣ المهدي
قتل	٧٨٦ - ٧٨٥	٤ آب	٤ الهادي
قصر جعفر	٨٠٩ - ٧٨٦	١٥ ايلول	٥ الرشيد
حصار بغداد الاول ٨١٢ - قتل	٨١٣ - ٨٠٩	٢٤ آذار	٦ الامين
دخل بغداد ٨١٩ - المأمونية	٨٢٣ - ٨١٣	٢٦ ايلول	٧ المأمون (١)
قصر خر موسى - سامراً ٨٣٦	٨٤٢ - ٨٣٣	٧ آب	٨ المتصم بالله (٢)
في سامراً	٨٤٧ - ٨٤٢	٥ ك ٢	٩ الواصل بالله
في سامراً	٨٦١ - ٨٤٧	١٠ آب	١٠ المتوكل على الله
في سامراً	٨٦٢ - ٨٦١	١١ ك ١	١١ المتصم بالله
عاد الى بغداد - الحصار الثاني ٨٦٦	٨٦٦ - ٨٦٢	٦ حزيران	١٢ المستعين بالله
في سامراً - قتل	٨٦٩ - ٨٦٦	٣٥ ك ٢	١٣ المعتز بالله
في سامراً - قتل	٨٧٠ - ٨٦٩	١١ نوز	١٤ المهدي بالله
عاد الى بغداد	٨٩٢ - ٨٧٠	٢١ حزيران	١٥ المتشدد على الله
الغريب والتاج	٩٠٢ - ٨٩٢	١٦ ت ١	١٦ المتضيد بالله
امّ التاج	٩٠٨ - ٩٠٢	٥ نيسان	١٧ المكتفي بالله
وقد الروم ٩١٧	٩٣٢ - ٩٠٨	١٣ س	١٨ المتندر بالله (٣)
خلع	٩٣٤ - ٩٣٢	٣١ ت ١	١٩ الفاهر بالله
اغطاط الخلافة	٩٤٠ - ٩٣٤	٢٤ نيسان	٢٠ الراضي بالله
خلع	٩٤٤ - ٩٤٠	٢٣ ت ١	٢١ المتقي بالله
خلع وقتل ١٥ ك ٢ ٩٤٦	٩٤٦ - ٩٤٤	١٢ ت ١	٢٢ المستكفي بالله

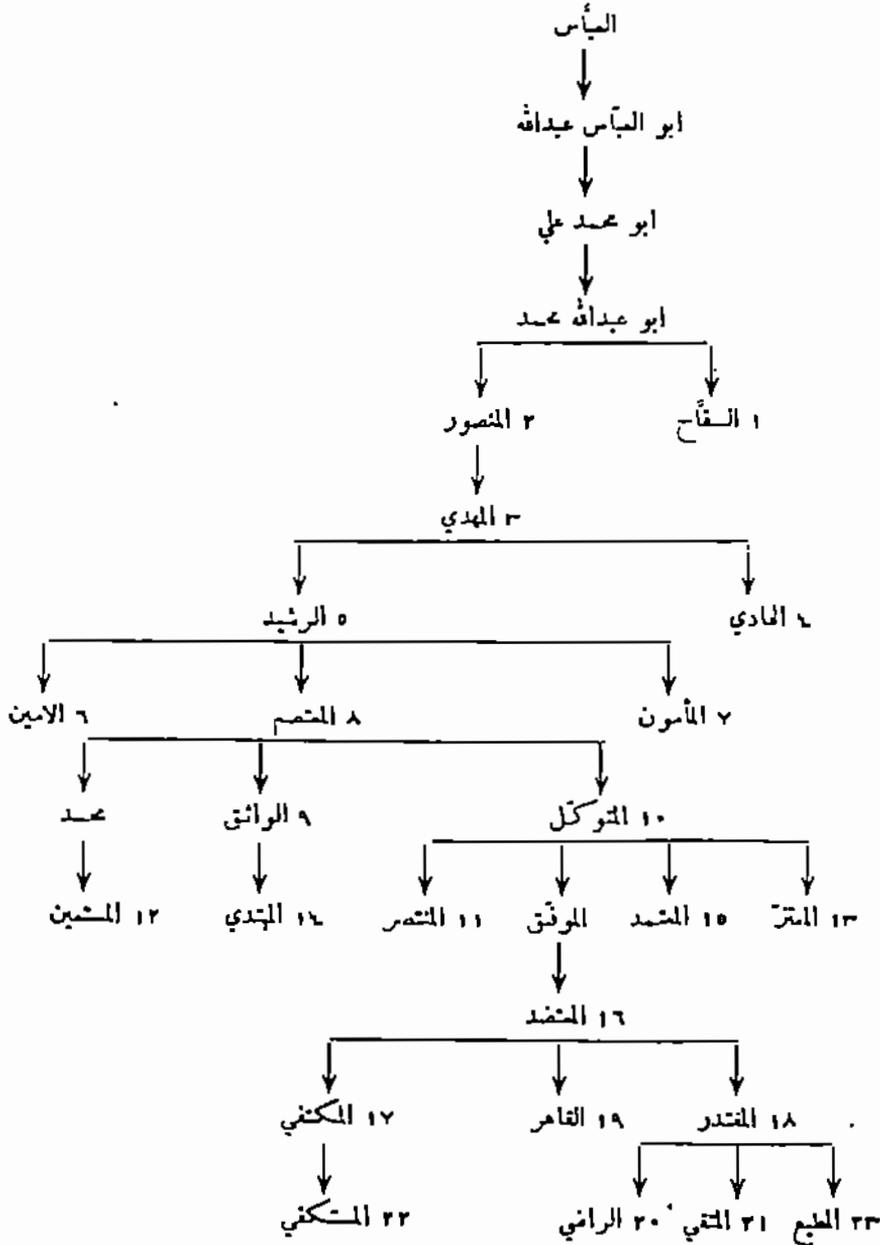
(١) بينما كان لا يزال في خراسان ، بويج في بغداد عمه ابراهيم بن المهدي ولقبه « بالبارك » (٢٤ نوز ٨١٧ - ١٨ ك ٨١٨)

(٢) مربع انصار من المأمون في دمشق ٨٣٣ - وباج العلويون محمد بن القاسم الماوي ٨٣٣

(٣) تحلل خلافة خليفة المعتز « المرتضى » يوماً واحداً (١٨ ك ٩٠٨) ، وخلافة الفاهر يومين (٢٨ شباط ٩٢٩)

الجدول الاول

٢ - الخلفاء حسب تسلسل انسابهم



الجدول الثاني

مؤرخو بغداد

نذكر في هذا الجدول اشهر من كتب عن بغداد من مؤرخين ، وجغرافيين ، ورحالة ،
من امكننا الوقوف على آثارهم :

القرن التاسع :

ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور: كتاب بغداد. لم يصل الينا منه الا الجزء السادس ،
عنوناً في المتحف البريطاني في لندن ؛ وقد نشره هنس كلتر بنحطه ، في ليبك سنة ١٩٠٨ :

Dr H. Keller, *Sechster Band des Kitáb Bagdád von Ahmad ibn abi*
Táhir Táifür, Leipzig, 1908

البلاذري : فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٦٦

ابن رُست : الاعلاق التنبية (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٩١

اليعقوبي : كتاب البلدان - في آخر كتاب ابن رست ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن خردادبَه : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٩

قُدامة بن جعفر : كتاب المراج وستمه الكتابة : منتخبات منه في آخر كتاب ابن
خُرداذبَه ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن النقيه الهذلي : مختصر كتاب البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٥

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٠

القرن العاشر :

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (طبعة Barbier de Meynard) باريس ،

١٨٢٢

الاصطخري : مسالك الممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٠

ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٣

المقدسي : معرفة الاقاليم (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٧

ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغانى ، بولاق ، ١٨٦٦

ابن النديم : الفهرست (طبعة Flügel) ليدن ، ١٨٧١

ابن مسكويه : كتاب تجارب الامم (طبعة Amedroz) مصر ، ١٩١٦

القرن الحادي عشر :

الحلال الصابي : نخبة الامراء في تاريخ الوزراء ؛ ويليها الجزء الثامن من تاريخه (طبعة

Amedroz) بيروت ، ١٩٠٤

المطيب البغدادي: تاريخ بغداد - نشر مندته جورج سلمون في كتابه الآتي ذكره ،
وهي وحدها حسنا في الموضوع الحالي . ثم نشر التاريخ في القاهرة ، ١٩٣١

القرن الثاني عشر :

ابن الجوزي : مناقب بغداد (طبعة الاثري) بغداد ، ١٣٢٢ هـ . (١٩٢٣)

ابن جبير : رحلته (طبعة Wright) لندن ، ١٨٥٢

القرن الثالث عشر :

ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ليبسك ، ١٨٦٦

ابن الاثير : الكامل ، مصر ، ١٣٩٠ هـ . (١٨٧٣)

ابن الهبري : تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠

ابن الطينطني : الفخري في الآداب السلطانية (طبعة Derembourg) باريس ، ١٨٩٥

القرن الرابع عشر :

ابو القدا : تويم البلدان (طبعة de Slane et Reinaud) باريس ، ١٨٤٠

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (طبعة Defrémery et

Sanguinetti) باريس ، ١٨٥٩

القرن التاسع عشر :

البستاني : دائرة المعارف : المجلد الخامس ، بيروت ، ١٨٨١

تابليون الماريني : تتره المباد في مدينة بغداد ، بيروت ، ١٨٨٧

القرن العشرون :

G. Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900

Clément Huart, *Histoire de Bagdad dans les temps modernes*. Paris,

1901

G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdadh d'al-Khaṭīb al-Bagdadī*, Paris, 1904

J. As., 1904, p. 159-169 وانظر نقداً لهذا الكتاب بقلم دي غوبه

Habib Chiha, *La province de Bagdad*, Le Caire, 1908

L. Massignon, *Mission en Mésopotamie 1907-1908* [*Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire*, XXVIII, 1910 et XXXI, 1912]

M. Streck, *Baghdād* [*Encyclop. de l'Islam*, I]

علي طريف الاعظمي: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث ، بغداد ١٣٦٤ هـ . (١٩٢٦)

ومن اراد زيادة مطروحات عن مؤرخي بغداد من عرب وفرنس وترك وافرنج فليه بلائحة

واسعة في كتاب ماسينيون السابق الذكر المجلد ٤ : ٥٥-٥٦